سمفونية الشمال

مذكرات رجل هارب

عبد الحليم بن قسمية

سمفونية الشمال

مذكرات رجل هارب

رواية

دار خيال للنشر والترجمة ©
تجزئة 53 قطعة. رقم 27. بليمور
برج بوعريريج – الجزائر–
0668779826
Khayaleditions@gmail.com
ردمك : 978-9931-738-82-4
الإيداع القانوني : السداسي الثاني 2019.

إهداء

إلى كبرياء أبي وجبروته، إلى عفوية أمي وطيبتها

إلى أمي التي لن تقرأ هذه الرواية، إليها على سجاد صلاتها يامن وجهها كطمأنينة الصلاة أو كأرض أحياها المطر أو كغرفة في الجنة مطلة على بيت رسول الله.

إلى أصدقائي الذين يحبونني دون مصلحة تذكر وعائلتي الصغيرة التي تتحمل كسلي ومزاجيتي.

إلى كل جزائري يبحث عن وطن جديد.

إلى أولئك العاجزين عن ترتيب غرفهم من فرط الذاكرة المتعبة.

في تلك المدينة المبتسمة، قبلت عرض زملائي مشاركتهم محاضرة بمقهى، في مدينة لا تعرف الحزن البتة؛ مدينة جميلة كحلم مستحيل؛ مشرقة كشمس آذار؛ بهية كمطر نيسان.

كان مساءا شيقا وممتعا ونحن نستلهم بشغف موضوع المحاضرة الشيق: "تكوين شخصية الإنسان ."

-الأحزان تبني شخصياتنا والتجارب تصقلها كما يصقل الاجتهاد الموهبة، نحن لا نعرف أنفسنا إلا بعد زيارة مدائن البؤس والتجول في غياهب الحزن، أحزاننا التي نعانقها كل يوم، شخصياتنا التي تظهر للآخرين فولاذية، دموعنا بالليل على سجاد الخشوع.

خيباتنا في المساء التي نعود بها إلى وسائدنا التي تشفق علينا من ثقل الوجع هي صنيع شخصياتنا، صدقوني أيها السادة.

كان الزملاء يناقشون الفكرة بين أخذ ورد، أضفت قائلا: "غياهب الحزن التي تطل على الموت، لا ترمي بك من الشرفات، بل تساهم في عودتك حيث كنت بنفس جديد لكن بروح قوية كالإعصار، نحن ننتقل من مكان إلى آخر. من هضبة إلى جبل أكثر ارتفاعا.

بعدها سكتت لدقائق أرتشف من فنجان الكابتشينو الذي كان أمامي، نطقت إيميليانا طالبة الطب في جامعة برلين: «هل تحمل كل هذه الأحزان يا سيدي؟" قالتها متنهدة كأنما تتأسف على شيء غال ضاع منها.

هي في الحقيقة أصابت في قولها إلى حد بعيد.

ما شد انتباهي خلال المحاضرة هو الصمت الرهيب الذي التزمه شاب أسمر قليلا قد لاحت في وجهه بعض شمس ألمانيا فجعلته يبدو أنه أحد أبنائها: "قوام رياضي، عينان بنيتان، شعر أسود، ولحية سوداء لا هو بالطويل الفاره ولا بالقصير الفاحش حولت أجواء ألمانيا الباردة بشرته إلى الاحمرار، وعلى وجهه ستر لم أره من قبل إلا في صورة جدي رحمه الله، في وجهه ستر الأنبياء كأنه من أهل الجنة.

كان جالسا معنا طيلة ساعتين ولم ينبس ببنت شفة عدا ابتسامات قليلة يوزعها كلما دعت الضرورة، ابتسامات خلفها أحزان كالجبال.

لم أكن أعلم موطنه، اندهشت حين أخبرني أننا نتقاسم نفس الوطن، تعلم إيميليانا بهويته والزملاء أيضا، شعرت ببعض البلاهة في تلك اللحظة، كيف لم أدرك ذلك !؟.

بادرته بالحديث إليه بالعامية الجزائرية، أخبرني أنه من الشرق الجزائري ثم تراءى لي أن أسأله كيف وصل إلى هنا؟، ففي مخيلتي أنه جاء بطريق الدراسة.

سكت هنيهة ثم قال :

-جئت "حراقا" على طريق اليونان.

بعفوية ودون أن أنتبه إلى إيميليانا قلت :

– هذا يحمل أحزانا بلاد بأكملها

تعجبت تلك الشقراء من كلامي بحكم أني كلمت ياسر بلغة يلزمها عقود من الزمن حتى تفك شفرتها.

ابتسم ياسر ابتسامة شاعر يريد قول الكثير أو يريد نسج قصيدة لم تسمع الآذان مثلها قط.

على غير عادة الألمان الذين لا يهتمون بالأمور الشخصية ولا يلقون لها بالا، كان الزملاء يحبون اكتشاف الحياة، كيف يعيش الآخرون !؟، كيف ينتقلون بين جوانح النفس!؟ ميشال، إيميليانا. مارتن. روسيل. ريتا، آه وياسر أيضا كدت أنسى أنه منهم، لا أدري كيف اجتمعوا وشكلوا هذه السمفونية الرائعة، كم أحسدهم على هذه الفرقة الرائعة التي جمعتني بهم في عرض مسرحي فأنا لست هنا إلا زائرا مكتشفا لهذه البلاد.

الحق أيها السادة أني لم أهضم هزيمتي، بلاهتي يوم المحاضرة، كيف لم أتفطن إلى أن ياسر الجزائري، حتى وهو صامت كان من المفروض أن أستنطقه، كان من المفروض ألا يخونني حدسي، لكأني بجدار وقف أمامي حاجزا دونه.

لا أعرف لماذا حذتني رغبة جامحة في اكتشافه، لماذا كان صامتا رغم أنه يتقن الألمانية لا شك. لماذا؟ كيف !؟.

هاتفته في الغد، بدا لي مبتهجا باتصالي ربما لأنني ابن جلدته في بلاد غريبة كما تقول الأسطورة، تناولنا وجبة الغداء في مطعم

الجامعة، أخبرني أنه يدرس الأدب الألماني هنا. كانت وجبة كاملة شهية لذيذة، ذكرتني بوجبة المطاعم الجامعية في بلاد تركتها خلفي.

دعاني لزيارته في المساء حيث يقطن، قبلت دعوته طبعا ولا أخفي تلك الرغبة الجامحة في اكتشافه، أحب اكتشاف الأشخاص المتفوقين، الذين يقاومون الحياة، الذين يقفون ندا لها.

كان الجو باردا، وصلت إلى بيت ياسر، لمحته يطل من النافذة والشمس تقترب من المغيب تذكرنا بجمال الصحراء الآسر الأخاذ وهو يمتزج بلمعان الرمال الذهبية.

استقبلني بحفاوة لا أستطيع أن أنساها وقد جمعتنا الغربة بعد أن شتتنا آلام الوطن الواحد، قدم لي قهوة أوربية طغى وجودنا عليها، ناي عربي بنفس أوروبي.

-كأني بك أنشأت عالما داخل هذه الغرفة.

-لا شيء يعود بي إلى هذه الغرفة سوى هاته الطاولة الحافلة بالروايات وسجاد الصلاة إذا حان وقتها، بين الحنين إلى بلاد الأجداد والطموح الذي لا مكان له إلا هنا من وراء البحار، حياة الأجداد حكاية لا تمحي وبلدان الضباب رواية لا تنتهي.

عندما أتأمل جيدا في بيتي وأسرتي وكل ما يحيط بي أدرك أنه فعلا في هاته الحياة متغيرات كثيرة وأيام تمضي وحلقات متتابعة ومتباينة، كلها مسلسل تتحكم فيه الإرادة الإلهية حيث للإنسان

دور فيها أو البطل إن صح القول، دور الساعي الذي عليه الأخذ بكل الأسباب من أجل تلك المتغيرات في حياته من يوم ولادته باكيا حتى رحيله والناس حوله يبكون بعد أن ضحكوا سرورا يوم ولادته.

لم أشأ أن أقاطعه، حري بي أن أنصت له.

أنا ابن تلك القرية الصغيرة التي تتخذ من عنفوان الجبل ستارا لها من قسوة الطبيعة ومن الريف الجميل موطنا ليس كمثله موطن، قرية من حنايا الشرق الجزائري وما أدراك ما الشرق.

الشرق الجميل، الشرق الضارب في أعماق الحضارة، الشرق الذي إذا زرته لن يفارقك الحنين إليه، حتى إلى ذلك التراب لتلك الأحجار. لتلك الجبال المكسوة بالاخضرار. بالثلوج. إلى كل شبر من أرضه المرتوية بدماء الشهداء، إلى زغاريد الحرائر على روح كل شهيد، لأوراق الخريف المتناثرة وأشجار الصنوبر والتوت وكل الظلال الوارفة والتلال الواسعة وكل ابتسامة طفل عند عودة أبيه من الجيش.

في هذه الحياة متغيرات كثيرة، نألف أشياء وأشخاصا وأماكن ونتعود عليها ثم تغادرنا أو نغادرها، في الحالتين هناك تغير.

نخطط للمستقبل، نغني لأمجادنا، نرقص لحاضرنا ونحلم لآغادنا وفي الأخير نقف احتراما للواقع ونستعد تحية للحظ وللأمل.

في كل ما يحيط بنا آلام وآمال، والمسألة ليست ترتيب حروف فقط إنما ترتيب أفكار وأهداف وأشخاص وأحلام وأماكن وأنظمة.

على تلك الأرض ما يستحق الحياة كما يقول درويش وعلى هذه الأرض ما يستحق التضحية، نحن نسعى لنبني أوطاننا والأوطان تسعى لتهدم أحلامنا، نحن نبيع أحيانا وأحيانا أخرى لا يسام شعورنا سوم بخس، في مذهب الحياة أنبياء وعند شعوبنا نحن المصابون بمس.

في هذه الأوطان تسابيح للبداية وعلامة استفهام بعدها ولا معرفة فوق معرفة الشعور كما تقول هيرتا مولر، فنحن مدينون لأنفسنا بالصبر وبعضنا مدين لبعض وبين الوداع والترحيب تيه لا نهاية له، لا دين له.

مرحبا أوربا وداعا أيتها الصحراء

طاب لي ما سمعته رغم أني لم أفهم الكثير مما قال، كان يتنقل من موضوع لأخر كأني به أراد أن يقول كل شيء في جلسة واحدة.

التفت حولي أتأمل غرفته، سجاد صلاة، خزانة صغيرة بها بعض الكتب ومجموعة كبيرة من الكتب متناثرة هنا وهناك، فوق السجاد فوق السرير، على طاولة، هناك قرب النافذة، بعضها بها فواصل، أغلبها روايات بعدة لغات وقليل من كتب الاقتصاد والاجتماع والسياسة.

بجانب السرير كراسة كتب فيها مقولات لكتاب وشعراء وبشكل جيد ومنمق ومن أبرز المقولات التي وقعت عيني عليها: «ونحن نحب الحياة إذا ما استطعنا إليها سبيلا"، «إن أعادوا لك المقاهي القديمة فمن يعيد لك الرفاق» ثم مقولات أخرى لإيليا أبو ماضي وآخرون، واضح جدا تأثره بالرمزيين.

ثم أوراق مبعثرة كتب فيها خواطره مؤكد أن عقله مشتت هنا وهناك، كثرة الكتب في غرفته جعلني أحبها، رغبت في تفحص الكثير منها لكني خشيت إزعاجه، بل استحييت منه وتذكرت مقولة ترددها أمي: «يرحم من زار وخفف ."

بتنا الليلة في هدوء وخرجنا في الصباح لنشتري أغراضا، أحسست أنه يريد أن يقول لي كل شيء، خرجنا من بيته، قابلتنا نسمات باردة وقطرات المطر، ورغبة مني في إضفاء تنوع على أحاديثنا قلت له: «الجو في برلين ممطر وبارد، هكذا أحبه، كم تعجبني هذه المدن"

-يا رجل هذه قطعة من الجنة.

-أنت محظوظ، أما أنا فلست إلا زائرا كما تعلم

بعد أن تعبنا من السير ركبنا الترامواي عائدين إلى البيت.

-أحب هذه المركبات يا عبد الحليم، أحب القطارات وما شابهها، أرجوحة النفس.

-مريحة هي كثيرا، لا أعلم لماذا ترمز لي إلى الحضارة

بدا لي فرحا جدا عندما ركبنا الترام كطفل صغير اشترى قطعة حلوى.

وعندما وصلنا إلى الغرفة وقد كنت منهكا ظننت أنه سيخلد للنوم وقد خفت أن أحادثه حتى لا أثقل عليه وقاومت رغبتي لكنه عندما وضع رأسه على الوسادة استفاق من جديد.

القطارات تحتضننا كما تحتضننا المسارح والمقاهي يا صديقي

ذات مرة وفي بداياتي هنا، ركبت القطار من برلين متجها إلى أوغسبورغ بعد أن اشتريت تذكرة وحجزت لي مكانا بجانب النافذة حتى أتأمل في المناظر وقد قيل لي أن الطبيعة خارج برلين كالجنة.

قبيل ثوان من الانطلاق صعد رجل واتخذ مقعدا مقابلا لي هو أيضا اختار النافذة.

انطلق القطار ببطء وأنا أتأمل الشوارع التي يطويها كالورق خارجا من برلين، أحسست برغبة في الحديث إلى ذلك الخمسيني الذي يقابلني بعد أن أبصرته هو أيضا ينظر ويتأمل من النافذة، لم أجد طريقة أفتتح بها الحديث معه، كدت أقول: «إن الجو بارد اليوم"، تذكرت أنها عبارة جزائرية والجو في ألمانيا لا يعرف التقلب، غلبني الضحك لأني كنت سأقلد سائق الطاكسي في الجزائر.

تجرأت وافتتحت الحديث: «كم هي جميلة برلين» هل توافقني الرأي سيدي؟"

-بالتأكيد هنا تلتقي الخضرة بالجمال لتعطينا حلة بهية.

أردت أن أشرح له قليلا سبب إعجابي ببرلين فاستوقفني قائلا:

-أنت لست ألماني

-نعم

-لهجتك تقول إنك لست ناطقا، على كل حال مرحبا بك هنا، أتمنى لك عطلة مميزة وأن تثري قاموسك جيدا.

-مشكور سيدي وذلك هو مبتغاي، لم أشأ أن أخبره أني كنت قاصدا جامعة أوغسبورغ خوفا من أن يناقشني في مواضيع دراسية فيعجزني.

وواصلنا حديثنا وأنا أختار الكلمات وأتفحص الجمل وأحترس في تصريف الأفعال، تذكرت نفسي في مرحلة المتوسط.

وهو يحاول في كل مرة أن يضيف لي كلمات لم أكن أستعملها من قبل، بدا لي طيبا جدا خاصة عندما دعا المضيفة لتحضر فنجانين من النسكافيه وقام بدفع الثمن، هاته العادة لا توجد هنا البتة. لا أحد يدفع عنك.

ودونما شعور وجدت نفسي أتحدث معه في كل المواضيع حتى الخصوصية منها، حتى في السياسة والحرب والحب والمجتمع.

لم أجد حرجا في محادثته في أمور أقل ما يقال عنها أنها خصوصية.

أحسست براحة كبيرة وأنا أحدثه عن أشياء حزت في نفسي كثيرا عن أشياء كنت ساكتا عنها لمدة طويلة وأنا أرتشف من فنجان النسكافيه رشفة بعد كل جملة.

استرسلت في الحديث عن أشياء لم تعجبني وسكتت عنها في بلادي، عن معاناتنا هناك وكان يتجاوب معي عند كل فكرة خاصة عندما يتعلق الأمر بفكرة نفسية محضة كأني به دارس لعلم النفس، أحسست أنه يفهمني وأن كلماتي رغم عدم وضوح معانيها وتركيبتها الركيكة كانت تتسلل إلى داخله.

أردت أن أشارك ياسر الحديث لكنه قاطعني وواصل سرده.

ما أجمل الغرباء يا عبد الحليم.

ما أجملهم حين نتكلم معهم ببراءتنا وبصدقنا وما أجملهم حين يحسون بآلامنا، حين يحتوون حكاياتنا ومعاناتنا حين يتجاوبون مع تراتيلنا دون خبث حين يحيون آمالنا.

ما أجملهم ربما لأنه لن تتاح لنا فرصة اللقاء بهم كأعدائنا أو كمن يتبعون عيوبنا، ممن يحسون أننا لسنا من بني البشر، نحن نعيش كالبشر وهم يحاسبوننا كالملائكة.

شيئا فشيئا اقترب القطار من مدينة أوغسبورغ بعد رحلة ممتعة اجتمع فيها جمال الطبيعة خارج برلين وجمال لقائي بذلك الرجل.

نزل هو قبل المحطة الأخيرة مسرعا كعادة الألمان وحياني قائلا:

-إلى اللقاء. أتمنى لك حياة طيبة

لقد نزل ذلك الرجل ولم يدر أنه أحيا في أشياء وأشياء، فإذا كان قد سمح لي بالبوح دون تحفظات فإنه أخرج مني أشياء كنت ساكتا عنها، بل إن ذاكرتي هي التي كانت ساكتة عنها

نزل ذلك الخمسيني ولم يدرأنه أهاج جراحاتي الدامية، تراتيلي البالية وهلوساتي في تلك البلاد التي تركتها خلفي.

نزل ذلك الغريب الجميل ولم يدرأنه أشعل نار ذاكرتي الخامدة وبراكينها النائمة أشعلها كما أشعلت البسوس حرب بكر وتغلب.

ذاك الذي كان يطل من النافذة مقابلا لي كأني به أطل على ذاكرتي التي كانت داخل بئر مغطاة ربما نسي أن ينادي ملائكته:

-يا بشرى هذا غلام.

كل الباقين نزلوا في المحطة الأخيرة طوعا إلا أنا أنزلني المراقب بتنبيه بعد أن شرد تفكيري بعيدا بعيدا...

إن هذا الزمن هو زمن وجع الذاكرة زمن لنزفها، هذا زمن الأغبياء ومرضى الزهايمر؟ زمن الذين لا ثورة في رؤوسهم ولا كر ولا فر، زمن الذين لا يحبون الشتاء.

ثم نمت وتركته يتحدث ولا أدري ماذا قص بعد ذلك، المؤكد أنه غضب مني لأني نمت دون أن أستأذنه، من شدة التعب لم أنتبه حتى وجدتني مستيقظا على صوت المنبه عند صلاة الفجر عرفت أنه غضب من طريقة كلامه ذلك الصباح حين أوجز في التحية وهدأت موجة الكلام التي بدأها بالأمس وعاد إلى حالته الأولى يوم التقيته في المقهى يوم المحاضرة.

رجل له ذاكرة عظيمة، كم يلزمني من الوقت حتى أسمع منه كل شيء؟ أحاديثه تصلح كروايات وأنا لست إلا زائرا هنا، كم يلزمني من الوقت؟

عدت ذلك المساء إلى الفندق الذي كنت فيه، عدت جاهلا بعدما اعتقدت أن ليلة واحدة ستكفيني لأكتشف هذا الرجل اللغز، عدت كما يعود الصياد خائبا من الصيد خالي الوفاض، ونفسي التي دفعتني دفعا نحوه أوقدت نار الحرب علي، نفسي اللعينة التي ترفض الاستسلام حاولت مرارا إقناعها أني لست ذلك الرجل الخارق.

لا أعلم لماذا بالضبط غضب مني وحتى هاتفه أغلقه فبعد أن وصلت إلى الفندق حاولت الاتصال به دون جدوى. وبعد دقائق وصلتني رسالة منه يقول فيها: «الذي يفقد الأمل كله عليه أن يكتب رواية ."

يومان قضيتهما في التجوال مرفها عن نفسي، فقد جئت زائرا، زرت برادنبورغ والجدار وأماكن أخرى.

وفي اليوم الثالث قصدت جامعة برلين في الصباح.

وفي طريقي اتصلت ببعض أعضاء الفرقة. وضربنا موعدا أمام كلية اللغات، على طاولة في الحديقة الخضراء، لم أجد لا ياسر ولا إيميليانا، ولا أعلم ما الذي أخرهما. سألت روسيل: ألم يأتيا؟"

-لا أعلم ما الذي أخرهما. قالها متحسرا كمن يتحسر على زمان الوصل في الأندلس أو كما تتحسر أمي على عدم اجتماع بناتها في نفس اليوم.

خيم عليهم السكوت عدا روسيل الذي تشجع وبادر بالكلام:" مرحبا يا أصدقاء، ها نحن نلتقي من جديد، أرجو أن يطيب لقاؤنا بعطر أرواحكم الزكية"

أخرجت هاتفي واتصلت بهما، قالت إيمليانا أنها ستأتي بعد دقائق، آووه وياسر لحسن الحظ فتح هاتفه وأخبرني أنه سيأتي بعد قليل.

أبصرت علامات الفرح على وجوه الآخرين ولولا أني قلت لياسر وإيمليانا أن موعد مغادرتي قد اقترب ما جاؤوا. فهمت من أحاديثهم أن ياسر وإيمليانا كانت بينهما أشياء وأشياء.

حين قدم ياسر بدا جميلا جدا من بعيد وقد يبدو الشخص المتعب جذابا من بعيد، وحين وصل تجنب مصافحتنا حتى لا تلاقي يده يد إيمليانا، عدا ابتسامة كابتسامة ملاك في سريرة شاعر.

– سعيد بكم أيها الأصدقاء وقد اقترب موعد رحيلي ليتكم تحدثونني عن المسرح قليلا، عن فرقتكم الجميلة.

تشجع ياسر: "سجلني مع الغائبين، مع المهملين، مع الكسالى"

وتحججت إيمليانا بكثافة البرنامج الدراسي، وصمت الباقون لأنهم يعرفون أن في فرقتهم في فرقة وأبصرت في أعينهم حنينا إلى أيامهم السابقة وإبداعاتهم.

–أرجو أن تستمروا في الإبداع، إني أرى فيكم شموعا تضيء هذه السماء، إني أرى المسرح خلق لكم، إني أريدكم أن لا تفشلوا فتذهب ريحكم.

هنا نطقت إيميليانا: "ابن بلدك هذا غير مزاجه ولا ندري ما الذي سيحدث بعد ذلك"

أخرج ياسر من محفظته دفترا كبيرا، إنه دفتر مذكراته.

– تفضل يا صديقي، قد يغنيك هذا الدفتر عن كل النقاشات وكل الصراعات الفكرية. أرجو أن يروق لك ولا تنسى: "الذي يفقد الأمل عليه أن يكتب رواية ."

استلمت ذلك الدفتر: "سأحتفي به يا ياسر، سيروق لي كثيرا لا شك، فهذا زمن الكتابة، إن الكتابة تحررنا"

سألني روسيل عن موعد عودتي للجزائر وعن برنامجي.

–لا أعلم يا صديقي، ربما غدا، ربما الذي بعده، ربما ذات يوم.

ليس لي برنامج أتبعه غير برنامج ذاكرتي المرهق، الذي يسيره الحنين ويتلاعب به، فأنا لا أعلم ماذا هو فاعل بي ذات يوم. ربما سأجن ذات مساء.

حان وقت الرحيل، جمعنا أوصالنا وسرنا مغادرين المكان، ودعتهم على أمل اللقاء.

-لأرواحكم التحية ولقلوبكم السلام.

سألني ياسر عن وجهتي.

-لا أعلم، لا أعلم شيئا غير رواية يقتلني الشغف لقراءتها، شتاء ومسرح ومطر وترحال...أنا عاجز عن كتابة شيء يحررني لذلك أقرأ هاربا من فرط الذاكرة، من فرط الأماكن من فرط الحنين إلى أشياء لم يعد لها مكان.

افترقنا وودعت البقية ملوحا بيدي كما كنت أحيي تلاميذي عند كل نهاية حصة، كنت أريد بها أحبكم وقلة منهم من كان يفهمها فيلوح بيده ونقرأ تفاصيل كل ذلك في أعيننا ...

-1-

وصلت إلى هنا ذات صباح بارد، أتذكر أنها كانت الرابعة صباحا، نزلت من على سلم الطائرة وقلبي يكاد يتوقف من الخوف، لم اشعر في حياتي بخوف مثله لأنه الخوف الأخير أجل الأخير، كدت السقوط مغمي علي بالقرب مكتب شرطة المطار، أنت لا تعرف معنى أن تدخل ألمانيا بوثائق مزورة، لم تخفني غابات اليونان التي قطعتها مشيا ولا سجون أثينا التي ذقت فيها أشكال العذاب، ركبت من مطار بلغراد بضمانة ولا ضامن لسلامتي هنا.

لقد أغمي علي فعلا قبل أن يمرر الشرطي جواز سفري على جهاز السكانير، حملت بمساعدة رجال الإسعاف إلى مستشفى المطار، قدموا لي الإسعافات الأولية ثم كان لزاما أن يأخذوني إلى مستشفى خارج المطار، حمل صديقي مرافقي وأركبوني سيارة الإسعاف خارجا، لم أفق إلا بعد يوم ووجدت الرفيق الذي أتى معي من بلغراد: "أين وثائقي، أين شرطة المطار "ونهضت مسرعا أرقص طربا حين أخبرني أن الجواز عنده والشرطة غادرت بمجرد توقيع الطبيب على سلامتي من الأمراض المعدية وأنا في غمرة الفرح، ناداني صوت من الداخل:" وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم. "

ماذا كان سيحدث لي لو لم يغم علي، أكيد أن جهاز السكانير كان سيكتشف تزوير وثائقي وكنت سأقبع في السجن بضع سنين.

خرجت بعدها متوجها إلى وسط المدينة منتش بما حدث لي كما ينتشي فريق ما بتتويجه بدوري الأبطال، توجهت صوب شارع كبير ووقفت في المنتصف متأملا كل شيء وقفت متأملا وحائرا، لقد كان ذلك الزمن زمن الدهشة أكاد لا أصدق أنني نجوت من فخ التكنولوجيا المربكة من مطار بلغراد التي كادت تفتك بي في مطار برلين لولا الإغماء، بل لولا مشيئة الله. تساءلت في قرارة نفسي: هل فعلا نجوت؟

كدت أجن حتى جلست على الأرض، تلك الأرض النظيفة ودونما شعور سجدت حمدا لله وشكرا ولم أرفع جبهتي إلا بعد دقائق حين نبهني أحد المارة وضرب على كتفي: "ماذا تفعل يا رجل؟، ستتعرض للمساءلة بهذه الأفعال" كنت لحظتها مغيبا تماما عن كل ما يدور حولي والكل يرمقني، حينها فقط شعرت أنني قمت بفعل قد يورطني مع رجال الأمن.

هل تعرفون يا سادة ما معنى أن تسجد شكرا لله حين تصل إلى أوربا؟ إلى بلاد قد تناهى إلى أسماعنا هناك أين نقيم أفراحنا وأحزاننا أنها بلاد الكفر.

نهضت مسرعا إلى الشارع الآخر "شارع فرانك هيسه"، بعد أن استعدت عافيتي وأدركت أني في بلاد جديدة أو بلاد الناس كما يقول أبي وقد كان جدي رحمه الله يقول لنا: " إذا نزلت ببلاد لا تعرفها ابحث لك عن مبيت قبل كل شيء ."

تراءى لي من بعيد نزل يبدو على درجة من الفخامة:" من المؤكد أنه باهظ الثمن" فقد يكلفني المبيت لليلة واحدة راتبي الشهري بأكمله"

لكن كان عكس ما كنت أتصوره وجدت ثمنه رخيصا أيها السادة، لقد كان في قمة الجمال والنظافة، حجزت غرفة لسبع ليال علي أن أتقشف حتى أحافظ على ما تبقى لي من مال أتيت به من هناك لن يكفيني لأكثر من خمسة عشر يوما طيلة مكوثي، رتبت أمتعتي، أديت بعض الصلوات وضمختها بالدعوات وخلدت للنوم، بل استسلمت ولم أستيقظ إلا بعد يوم كامل.

استيقظت وقد كان وقت الظهيرة جلست قليلا مع ذاتي أعد لها مساء جميلا بعيدا عن فوضى مدينتي هناك. لا أحلم بفتاة تشاركني قهوة المساء بل أكتفي بمواعدة نفسي بكل هذا الجمال والإبداع الرباني.

أول يوم لي أقضيه هنا في بلاد الماكينات "الماركات الأكثر مبيعا والأكثر استعمالا في العالم. تقنية خاصة واحترافية متميزة.

كان الهواء لطيفا والمدينة ساحرة. سكون جميل على أصوات طيور تحلق بالفضاء، أحسست أنني ولدت من جديد هواء نقي يتسلل إلى الروح، مشيت خطوات تجاه شارع "براند باخ وعيناي لا تكفان عن التحليق بالسماء :

-أووه إنها تمطر، فلتمطري حبا. فلتمطري حياة جديدة. فلتمطري مستقبلا جميلا لطالما انتظرته في بلدي. المطر الخفيف الذي يداعب أحلامنا ويبتسم لأمنياتنا، كيف يحافظون على نظافة الأرض كصرح سليمان عكس شوارعنا التي تعج بالمارة الغارقة في الطمي فتلعن المطر أحيانا وتلعن كل قائم على المدينة ومصالحها. هنا الشوارع مخضرة والأشجار محيطة بها، الحق أني رغبت في الاستلقاء على الأرض لأخلد للنوم قليلا لشدة ما راعني من نظافتها.

ما بال الناس هنا يسرعون في الخطى، هكذا هم الألمان كلهم جد وعمل والتزام ووسائل النقل نشيطة بلا هوادة متنوعة الخطوط ملتزمة بالتوقيت أي نظام هذا أي شعب هذا.

سرت تحت زخات المطر من شارع إلى شارع غير مبال بالتعب، بل لم أشعر بالتعب بتاتا، سرت وخلفي ألف رواية وألف ملحمة.

تذكرت أنني لم أتناول فطور الصباح ولا الغداء، دخلت أقرب مطعم، سمعت صاحبه يتكلم بالتركية مع عماله، في الحقيقة إن رائحة الشاورما المنبعثة توحي أنه مطعم تركي،

طلبت طبقا من الشاورما مع كثير من المايونيز كعادتي ولقد كان لذيذا جدا، لم أكتف بطبق واحد من الشاورما بل طلبت ثان فثالث، تذكرت مطعم اسطنبول مطعم هاكان، ذلك الجميل الذي قال لي ذات مرة مازحا: " لن تسعك الأرض بأرجائها يا هذا " قالها أكثر من مرة وكنا نأخذها على محمل المزاح لكني لا أعرف لماذا أتذكرها أحيانا وخيل لي كأنها قول نبي أو كأنما قرأتها في القرآن.

مازحت صاحب المطعم بكلمات تركية، اعتقد بداية أني سوري.

-لا وألف لا. أنا. أنا إفريقي يا سيدي من المغرب الكبير.

ابتسم وبدا لي مهتما جدا، رحب بي كثيرا أنا أيضا سعدت بذلك لعل الله يفتح به بابا للخير.

خرجت بعدها متجولا مبتهجا كأنما فتحت لي أبواب الجنان حتى اقترب موعد العشاء وألقى الظلام ستائره فتحولت إلى مدينة الأضواء، ابتعدت كثيرا فارتأيت أن أعود في الترامواي.

تهت عن نفسي وعن وجودي لولا إحدى الساعات الشامخة أعادتني إلى واقعي كأنها "بيق بان" التي ذكرتني بالمكان، نزلت إلى ذلك التركي مباشرة، تناولت طبقا من الكباب وعرفت بعد دقائق أن اسمه هاكان فذكرني بهاكان الذي تركته هناك في اسطنبول ومقولته "لن تسعك الأرض بأرجائها ."

رغبت في فتح حديث معمق معه لكنه كان منشغلا مع الزبائن فانصرفت عائدا إلى الفندق، سمعت كلمات عربية وقفت قليلا فعرفت مصدرها، إحدى محلات الشاي، كلمات مشرقية.

دلفت باب المحل، ملقيا السلام كأني التمست بعض الأنس، سألني إن كنت تونسيا. لا من الجزائر يا صديقي.

كان اسمه جورج، من دروز لبنان.

مازحته بعدها: "ربما من دروز بلغراد"، لقد ذكرني برواية جميلة جدا قرأتها لربيع جابر عن دروز بلغراد بحكاية حنا يعقوب.

المهم أنه كان يعد شايا ممتعا جدا، صار هذا الشاي ملازما لي كالصلاة.

آه تذكرت لقد فاتني الكثير من مواقيت الصلاة وأنا الذي كان أبي يسميني "القديس ."

عدت نادما إلى الفندق كما يحدث لي عقب كل صلاة أضيع وقتها.

وتذكرت أهلي. لم أخبرهم أنني وصلت بخير. آخر مرة تحدثت معهم كانت قبل أن أركب من سراييفو. لا بأس، غدا أتصل بهم.

تذكرت إقامتي في الفندق التي ستنتهي بعد ثلاثة أيام من الآن. تذكرت نقودي التي ستنفد قريبا، لا بد لي من عمل أعيش به، لا يمكن أن أبقى هكذا إلى الأبد.

لاح الصباح مشرق الشمس بين شفوف الستائر، حركة رهيبة في برلين مع ساعات الفجر الأولى، هم الألمان الأول هو العمل ولا شيء غير العمل.

قطعت شارعين أو ثلاثة حتى وجدت ذلك المقهى اللبناني، جلست في ركن بعيد، قطع النادل أشواطا ليصل إلي، سألته عن القهوة فعرض علي أنواعا لم أعرف منها غير الكابيتشينو والنسكافيه وذكر لي آخرا القهوة الشامية. بلا تردد طلبت قهوة شامية تناسب النغمات الآتية من حاسوبه هناك من مدخل المقهى.

– آه... كم اشتقت لأيام أبي عندما كنت صغيرا، كان يبدأ صباحاته بصباح فخري وفيروز ونغمات أخرى.

مكثت حوالي ثلاث ساعات في ذلك المقهى لأخرج بعدها، اتصلت بأهلي هناك، أجاب أخي في الهاتف وأعرب عن غضبه وقابلني بعبارة: " الآن تتصل، أين كنت طوال هذه الفترة، أمك كل يوم تشرف على الموت" ثم انهال علي بوابل من الشتائم وكلمات نابية ولم أستطع تهدئة روعه، أحسست فعلا أني أخطأت خطأ عظيما، أمي امرأة حنونة جدا وعفوية جدا لم أرها غاضبة البتة، إنها ملاك فوق الأرض، كانت تدثر أحزانها بالدموع والدعاء.

أخبرني محمد أنه سيطمئنها قاطعا المكالمة في وجهي.

انصرفت متأسفا نادما أكبر من ندمي على تضييع الصلوات، ما علاقة الصلاة بأمي. لم شعرت اللحظة بأسفي الكبير على تضييع ذلك التوقيت الرباني. لم اختلجني شعور البكاء اللحظة وأن أمي غاضبة الآن ودموعها تملأ وجهها الجميل، أوليست الأم إلا صلاة نقيمها ونعتني بها طوال حياتنا حتى إذا غادرتنا غادرت معها أرواحنا.

لم أطق فعل أي شيء ذلك اليوم، ما عادت لي رغبة في البحث عن عمل ولا البحث عن مكان يأويني بعد انتهاء مدة إقامتي في الفندق. ولم يهدأ لي بال حتى هاتفت أمي مساء، فصار الفرح يتراقص بعينيها الواسعتين المضيافتين الأكثر سخاء وطيبة، كان صوتها مرتفعا وكأنها لا تقنع بهاته الخيوط اللاسلكية. تخيلت نفسي أرتمي بأحضانها تلك اللحظة لتنتعش روحي الهائمة بين صخب ألمانيا الجميلة:" هل أنت بخير؟"" أعادت على آذاني سؤالها عن صحتي عشر مرات، أقسمت أنني بألف خير إلا أنها لم تقنع بقسمي.

لا شيء يهزمني غير دموعك أماه، رغم قساوتي وعنادي إلا أنني أنهزم أمامك، ولا تفارقني صورة العجوز التي كنت أزورها في المستشفى كل يوم ولم يكن لها أهل، فأهلها جميعا ماتوا في حادث مرور، لقد رحلت دون أن تودعني، لا أستطيع أن أنسى كيف دخلت إلى المكان المعهود فوجدته فارغا، لا أنسى كيف جلست دقائق فوق السرير أتذكر صورتها وكلماتها ولغتها الريفية

العفوية الجميلة جمال روحها، كيف انفجرت بالبكاء كمن فقد أمه وصديقي يدثرني كالنبي ويقول لي مهلا فربما أخذوها لإجراء عملية جراحية.

يا رشيد أين أغراضها؟ لقد رحلت دون توديعي، لقد قالت بالأمس :

– نلتقي غدا. أي غد كانت تقصد؟ ربما كانت تقصد الآخرة. أخذني رشيد إلى إدارة المستشفى للاستفسار وبالفعل أرشدنا العون الإداري إلى مصلحة الجثث رفعت الغطاء وودعتها بنظرة ثم قضيت شهرا كاملا بعدها حزينا لا يطيب لي شيء ومازلت إلى الآن حزينا لأجلها ولأجلي كلما تذكرتها، كلما رأيت امرأة بعمر أمي، لا شيء يهزمني غير دموع الأمهات.

عدت إلى غرفتي في الفندق متأخرا بعد احتسائي ذلك الشاي الذي أدمنته عند جورج فلم يجافيني النوم من فرط الحنين، من فرط الحزن من فرط الذاكرة.

التاسعة صباحا من يوم الجمعة. اعتدت الاستيقاظ متأخرا، توجهت إلى المقهى الشرقي في جو غائم، تناولت قهوتي على عجل والقهوة تشرب دائما على مهل ثم دفعت نفسي دفعا للبحث عن منصب عمل.

دخلت أيها السادة بلاد غوته وأنا لا أتقن لغته، مشكلة أخرى في طريقي لكن لا ضير كنت راغبا في تعلمها رغم صعوبتها.

خرجت من ذلك المقهى باحثا عن عمل اقتات منه، كلما دخلت محلا قوبلت بالرفض بعضهم يرفضني لعدم إحاطتي باللغة الألمانية، لم أشأ التسجيل في مكتب التشغيل لأن جوازي كان بهوية صربية، ذلك سيشكل عائقا كبيرا لي بعد مدة.

أردت أن أتعامل بهوية جزائرية وتركت ذلك الجواز كمنقذ في حالة التفتيش الأمني. قضيت ذلك المساء من محل لآخر لكن دون جدوى أنهكني البحث. عدت أدراجي بعد أن قطعت عشرات الكيلومترات مشيا، عدت متذكرا أن يوما واحدا فقط بقي في الفندق، كانت الساعة ترمي بشرر بتلك القوارض إلى مرمى الزمن، مررت بذلك التركي بائع الشاورما فوجدته منشغلا جدا وجورج بائع الشاي أيضا، وما بقي لي إلا أن آوي إلى فراشي ما عدت أقدر حتى على الصلاة.

صوت في داخلي يقول:" آه أيها القديس ."

نهضت مع أولى بشائر الصبح مع نسائم الفجر تذكرت فجر قريتنا الجبلية الصغيرة ونسائمها الطيبة وصلوات أبي.

إنه آخر يوم لي في الفندق.

خرجت كما يخرج الألمان باكرا وأنا الكسول الذي تعود على النهوض متأخرا، قصدت المقهى الشرقي وارتشفت قهوتي على عجل، للمرة الثانية أكسر قوانينها.

استأنفت البحث من جديد، يوما آخر بلا جدوى حتى أنهكني التعب مرة أخرى ولم أرجع إلا مع همسات المغرب بعد

أن تبللت ثيابي من المطر خائبا من معاكسات الحياة، اتخذت قرارا بالحديث إلى هاكان وجورج فلم أجد أي منهما، كلاهما كان غائبا ذلك اليوم، تذكرت ذلك الشخص الذي قدم معي من بلغراد إلى برلين ولقد أضعت كل وسيلة اتصال به للأسف. سمي ذلك المساء في كتب التاريخ مساء الخيبات.

وصلت إلى غرفتي حوالي منتصف الليل، حضرت حقيبتي واستسلمت للنوم، إنها آخر ليلة لي بالفندق، آخر ليلة قبل العودة إلى حياة الضياع والتشرد.

صحيح. تعودت على حياة الضياع والمبيت على الأرصفة لكن ما أحزنني هو أني اعتقدت أنها لحظة الخلاص حين نزلت في مطار برلين. حزنت رغم يقيني أن الفرج قادم، قال لي جدي ذات يوم:

"- لو وضعت لك مرآة الغيب لسجدت شكرا عند كل حزن ."

لقد تعلمت من ذلك النائم تحت التراب ما لم أتعلمه طوال عقد ونيف في المدارس، فألف سلام لروحك عسى أن ألتقيك ذات يوم هناك.

غادرت الفندق باكرا وسلمت مفتاح الغرفة لإدارة الفندق بعد أن برأت ذمتي، قمت بالتخلي عن بعض أغراضي حتى أخفف من وزن حقيبتي ولم أترك إلا بدلة واحدة ومشط ومصحف وكتب أخرى أعطيت لي في سراييفو.

أخذت أحث الخطى أبحث لي عن رصيف يأويني، الحقيبة صارت خفيفة ولن تعيقني، آه تذكرت رصيفا مررت به يوم أمس، إنه بالقرب من مكتبة "آنا ريختر ."

قررت أن أتوجه إليه مباشرة لعلي أستأنس بالمكتبة وهل أجد جارة أجمل منها؟

وبالفعل توجهت نحوه مرورا بمطعم هاكان الذي وجدته غائبا، لم يعد بعد من فرايبورغ. مشيت ببطء لأني اطمأننت للضياع بل إني اشتقت لأيام التشرد. لكن الجو الآن بارد وقد بدأ الشتاء في أداء صلواته هنا. سأتحمل قليلا لعلها تفرج. تضيق وعند الله المتسع.

قضيت ذلك المساء في مكتبة "آنا ريختر"، مكتبة عظيمة جدا، أمضيت ذلك المساء متجولا بين أروقتها، عناوينها يشتغل بها أناس مثقفون جدا، يتقنون عدة لغات محيطون بالقراءة، لعمري إنهم أفضل من أغلب كتاب الكون كموسوعات تمشي على الأرض.

تحدث إلى بعضهم قليلا وكان حديثا شيقا، أخبرتهم أنني جزائري وتناقشنا حول بعض الكتب حتى غربت الشمس وحان وقت غروبي أنا أيضا، إلى بيتي، إلى الرصيف.

أحضرت سندويتشا رخيص الثمن، فلقد بدأ عصر التقشف فلا ترف بعد اليوم، غير القهوة فإني لا أفرط فيها البتة، فهي الأهل والوطن والمأوى.

بت تلك الليلة متوسدا الرصيف، أحسست ببرد شديد قبيل الفجر، برد أيقظني مسرعا قاصدا حائط المكتبة محتميا به من تلك النسمات الباردة حتى بدأت حركة المواطنين باكرا طبعا متوجهين إلى العمل وتوجهت أنا إلى المقهى الشرقي واتخذت فيه مكانا قصيا أرتاح فيه من هول تلك الليلة الباردة من تعب أصاب مفاصلي.

ولا أعرف إلى اليوم لماذا تحتضنني المقاهي في الجزائر، في اليونان، في صربيا، في البوسنة... المقاهي والمطر أوطاننا الحنية.

مكثت هناك لأزيد من ثلاث ساعات حتى هدأت الحركة في الشوارع قليلا، أحيا في ذلك المقهى أشياء وأشياء بقهوته الشامية ونغماته الشرقية، أنا لست شرقيا لكن فيروز ووديع ومارسيل كانوا يخرجون تراتيلهم من قلاع تدمر وأسوار القدس وجبال الدروز وحدائق بابل والأهرامات.

قصدت أول ما قصدت مكتبة " آنا ريختر" تجولت قليلا وخرجت باحثا عن عمل، من المؤكد أن هذه المكتبة بها ما يكفي من العمال ولن تحتاج لأمثالي، قصدت هذه المرة شوارع لم أقصدها في المرات السابقة علني أجد ضالتي، من محل إلى آخر دون جدوى من خيبة إلى أخرى. بعضهم يشترط إتقان اللغة الألمانية وبعضهم لا يحب الأجانب وبعضهم مكتف بما عنده من العمال.

عدت أدراجي وسجلت ذلك المساء في دفتر المساءات الخائبة واحتضنني الرصيف مجددا، وكلما مر بي ملأ سخروا مني تعبت تعبا عظيما ذلك اليوم، تآكل حذائي وتورمت قدماي استلقيت على الرصيف، نمت حتى الثالثة صباحا وأيقظني البرد الشديد ولم أجد من حل سوى اتخاذ الكتب التي كانت بحوزتي كوسادة واستعمال وسادتي كغطاء إضافي واستأنست بوسادتي الجديدة.

فتحت عيني فإذا هو النهار يوشك أن يصل إلى منتصفه بقيت جالسا في مكاني محاولا استرجاع ذاكرتي، بعد دقائق جلس أمامي شخص القرفصاء وحياني.

- يومك طيب أيها الجزائري.

وأخذ يتفحص تلك الكتب، بدأ يتكلم عن مضامينها، هنا استرجعت ذاكرتي، إنه مارتن أحد عمال مكتبة آنا ريختر.

- ما الذي تفعله هنا، لماذا تنام هنا مثل المشردين.

-ليس لي مأوى يا مارتن ولا أملك عملا أعيش به.

-الأمر سهل، يمكنك التسجيل لدى مكتب التشغيل، من المؤكد أنك ستجد عملا.

-هل تريد الصراحة؟ لا أملك وثائق الإقامة.

من الواضح أن الإنسان يحتاج أحيانا للكذب حتى ينقذ نفسه أو يدرأ عنها الضرر لكني بعفويتي الصارخة أجد نفسي عاجزا عن التمثيل.

تأسف مارتن لحالي وسكت قليلا.

-سأتكلم مع السيدة "آنا" بخصوصك ربما توظفك في المكتبة بدوام جزئي

-سأكون ممتنا لك ما حييت يا سيدي.

منذ أن انطلق مارتن وأنا أدعو الله أن يكون هذا هو آخر عهد لي بالرصيف، كنت أدعو والمطر ينشد أناشيده في الأجواء، يقول أبي أن الدعاء في المطر مستجاب. كراهب في الدير أو كناسك متعبد في صومعته بقيت جالسا لساعات معلقا بحبل الرجاء.

كثر انتباه الناس إلى وذاك ما لم يرق لي إطلاقا منذ نعومة أظافري لم يكن يعجبني انتباههم إلي عدا في كتاب قريتنا حيث كان مرتادو المسجد يحضنوننا ويسألوننا كل مرة أين وصلتم في الحفظ وقد كنت الأول في الصف.

جمعت أغراضي وأسندتها إلى الحائط وانصرفت إلى المقهى هناك، توضأت وطلبت قهوة وخلدت إلى نفسي هناك في ركن شديد بعيدا عن كل شيء، رحت أرتشف قهوتي وصوت يصدح هناك عند مدخل المقهى، كانت موسيقى دون كلمات عرفتها مؤكدا "ابعثلي جواب"، قلت للنادل أن لا أحد سيرسل لي جوابا، أنا مطمئن.

-هههههه لا يبدو عليك يا سيدي، ملامحك تقول إنك متعب جدا، إما منهك جسديا أو مفارق لأرض أو أحبة. لكنك تبدو جميلا من بعيد.

-وهل قرأتهم عني في التوراة أم ماذا؟ ما قصتكم أيها الندل معي، أكل ندل المقاهي هكذا؟ لقد اتخذنا مقاهيكم أوطانا، نتخذكم الآن أهلا يا صديقي فربما تحتضنون جراحاتنا الدامية كما تفعل القهوة وكما تفعل هذه الموسيقى.

انصرف النادل إلى عمله وبقيت أتجول في شوارع الذاكرة، أخرج منها بين الفينة والأخرى لأترجى الله أن يجد لي مارتن مخرجا من هذا المأزق، من هذه الورطة. صحيح. تعودت على التشرد لكن صوتا يناديني من الداخل:

" -لقد حان الوقت لتصبح ما تمنيت يوما" "لقد حان الوقت كي يستجيب القدر ."

هذا الصوت أصبح يناديني كل لحظة منذ أن تجولت أول مرة في مكتبة "آنا ريختر ."

لقد كان أبي يريدني أن أصبح رجل دين وأمي كانت تريديني أن أصبح معلما، لقد حققت لهما ما أرادا، اشتغلت إماما متطوعا أيام الثانوي وأستاذا مستخلفا بعد تخرجي. ثم ساقني صوت من الداخل إلى حيث أنا الآن ولا أدري، ماذا ينتظرني مستقبلا، ولكنه في كل مرة أقترب من الفشل يناديني" لقد حان الوقت ليستجيب القدر ."

ربما هكذا هي الحياة ننتقل من ورطة إلى أخرى محاولين تجنب حتفنا، ذلك الرهيب الذي يأتي ليجمع ما تركته تلك الورطات وما خلفته تلك الأحزان، ما عجزت عن نسيانه الذاكرة القوية، لهذا أحب المصابين بالزهايمر، لهذا أكره الموت.

افترشت الرصيف مرة أخرى منتظرا جواب مارتن، لقد تعودت على الرصيف، تعودت بعد أن بدأ شيء ما يموت بداخلي، لكنه سرعان ما يتلاشى ذلك الإحباط وأتذكر أمي من جديد تحوطني بروحها التي لا تنام، تدثرني بيتنا القديم بدفئها الذي لا يروم.

عاد مارتن في اليوم الموالي ليخبرني أن مديرة المكتبة تستدعيني لأول مقابلة.

-مرحبا، لقد أخبرت السيدة آنا عنك. لم ترفض الفكرة، لكن يجب أن تجتاز المقابلة.

لقد سألتني عن مدى معرفتي بك لقد أحسنت صورتك بمخيلتها ولأنني أثق في أخلاقك وطيبتك، أحببتك يا صديقي ولا أعرف ما الشيء الذي جعلني أقترب منك أكثر وأحاول مساعدتك.

كان الفرح يعانقني، هممت لعناقه. رأيت فيه بريق أمل وشعاعا قد يدفئ برد جوانحي.

-متى ذلك؟ اليوم؟

-لا. عليك الانتظار ليوم آخر. هي غائبة اليوم.

-حسنا، لا بأس ربما في الأمر خير.

-لكن عليك أن تحسن هندامك قليلا، يتعلق الأمر بمقابلة عمل.

-أتدبر أمري يا مارتن، ما أرجوه هو ألا ترفضني بسبب الوثائق.

غادرني مارتن متجها إلى عمله، هممت لمحلات الألبسة باحثا عن ثياب جميلة ورخيصة الثمن، قد يبدو الأمر مستبعدا لكنني وجدته. هنا كل الألبسة تبدو جميلة لأن صناعتها أصلية ولا وجود للمقلدة إطلاقا.

حصلت على سروال جينز وقميص أبيض وحذاء أنيق الحذاء اقتنيته من سوق الملابس المستعملة، المهم أن كل ذلك لم يتجاوز 30 أورو.

ثم تفحصت نقودي، للأسف لم يتبق لي إلا 20 أورو.

حان وقت مقابلة مديرة المكتبة، كانت خطواتي تسابق خوفي وخجلي ورغبتي في الحصول على هذا العمل.

دخلت المكتبة وقد تجاوزت البهو سلمت أمري لله، كان مكتبها في الطابق الثالث، اصطحبني مارتن ودخلنا معا.

كانت سيدة في الأربعينيات ولا تبدو كذلك حتى تقترب منها، صوتها وعيناها يخبرانك أنها قد تجاوزت الأربعين.

رحبت بنا ودعت لنا النادل فجلب لنا كؤوسا من الكابتشينو وفي غمرة حديثنا وبعد أن قدمني مارتن تقديما جميلا،

أخبرتها بصراحة حين سألتني عن التسجيل في مكتب العمل، أخبرتها أني بدون وثائق، سكتت برهة خلت أنها ستطردني بعدها.

– وما الذي جعلك تترك بلادك وتأتي إلى هنا وتمكث دون وثائق؟

لم أجد عملا في بلدي يناسبني، لقد درست هندسة البرمجيات ومنعت من الماجستير دون وجه حق.

قلت في نفسي ربما أجد حلا هنا.

–من الجيد أن يكون لك طموح علمي وهذا في حد ذاته تحد تقوم به في هذا العالم.

خلت أنني قد فزت حتى أردفت:

–أما بالنسبة للعمل فيجب أن تكون مسجلا في مكتب التشغيل وهذا هو ما هو معمول به قانونا.

هنا عاد إلي الشعور بالخيبة الذي صار ملازما لي عند كل خطوة أخطوها.

–لكن لدي فكرة قد نساعدك بها وهي أن تعمل منظفا هنا في مكتبتنا بدوام مسائي ولو كنت تتقن الألمانية لكان الأمر بسيطا.

–أقبل يا سيدتي، لا مانع لدي، كدت أقبل رأسها من الفرح، أرادت أن تقنعني أن أجرة 500 أورو للشهر هو ما

بوسعها أن تمنحني إياه فأقنعتها أن الأمر عاد جدا وأني سأتعلم اللغة قدر المستطاع.

خرجت من مكتبها سعيدا جدا، كدت السقوط على الدرج من شدة الفرح فلربما قد ابتسم الحظ أخيرا، صحيح أن 500 أورو لن تكفي في الشهر لكني سأنفقها بحكمة وتقشف، لقد تعلمت الكثير في رحلتي من الجزائر إلى تركيا ثم اليونان ثم مقدونيا ثم مونتينيغرو ثم كوسوفو ثم البوسنة ثم صربيا، سألغي وجبة الغداء وأشياء أخرى. لكن لم يتبق لدي سوى 20 أورو. ماذا أنا فاعل بها لمدة شهر.

صرت أتناول وجبات لا يتعدى ثمنها 2 أورو وشكوت لمارتن أمري فأرشدني إلى مرقد يتعامل بالدفع المؤخر مقابل ضمان ولا ضمان لي سوى هاتفي.

انتقلت أيها السادة إلى هذا المرقد حامدا الله على هذه الخطوة آملا في أفق جديد ينقذني من حياة الضياع.

وتغير برنامجي اليومي فصرت أستيقظ قبل الظهر بقليل، أستيقظ لأتوضأ وضوء الصلاة التي وجدت صعوبة في التعود على مواقيتها هنا، أغير ثيابي وأتوجه مباشرة إلى مقهى هناك عند ذلك الشرقي وأتخذ مكانا قصيا وأجالس قهوتي، أحادث رشفاتها واستمع إليها بعد كل رشفة، أدندن أحيانا مع مطرب قد يعجبني يأتيني صوته من هناك، رغبت في السجائر كثيرا وأعجبني شكلها، لكن صوتا ظل يناديني من الداخل: لا لا لا.

هذا الصوت يغلب تلك الرغبة ويهزمها وذاك النادل ف كل مرة يسألني السؤال ذاته: "ألا تدخن يا سيدي؟"

ورغبت في اكتشاف أرجاء برلين الواسعة التي تضاهي ثلاثين مرة حجم الجزائر العاصمة، ورغبت في الخروج لزيارة المدن الأخرى التي أسمع عنها :

فرانكفورت، ميونيخ، هامبورغ، ... وجيبي يناديني: " لا لا لا ."

هكذا حتى إذا كانت الساعة الخامسة مساءا سرت الى المكتبة حيث أشتغل، بدأت أتعود على المكان وزملائي وبطريقة العمل التي بدت لي صعبة في البداية حتى النظافة هنا لها قواعدها، إنها مكتبة وتستحق أن تعامل بقدسية. فإذا حان منتصف الليل أغلقنا المكتبة وعدت أنا إلى مرقدي بعد أن أمر بالمطعم لأتناول وجبة خفيفة لا يتعدى ثمنها 2 أورو.

هكذا تعودت على نهج جديد.

تعودت على هذا البرنامج الذي يبدو روتينيا لكن بالنسبة لي كان فرصة للاستقرار ولألفة بلاد الماكينات، في الوقت ذاته استعرت كتابين من المكتبة بعنوان:" تعليم الألمانية لغير الناطقين"، أشتغل وقت فراغي وعطلة نهاية الأسبوع في تعلم هذه اللغة الرهيبة.

هكذا صارت حياتي، وبعد أن أحسست بتحسن مستواي في لغة غوته ولاحظ زملائي ذلك، بدأت أنفتح على المجتمع

البرليني واخترت نهاية الأسبوع، ذات سبت أن أتجول جهة الشمال وشوارعه التي ترسم حضارة تصعب محاكاتها.

وجدتني واقفا أمام صرح كبير، إنه مسرح بوتسدامر، قبيل المغرب بقليل وقفت أمام الباب قرأت عنوان المسرحية: "التقليد الأعمى" عنوان ذكرني بأشياء وأشياء، تذكرت مسرحية اشتغلت عليها مع تلاميذي ذات عام، كنت مؤطر الفرقة وكل زملائي الأساتذة آنذاك لم يكونوا يهتمون بالمسرح، أحببت كثيرا تلك الفرقة، كانوا رائعين، اشتقت لهم كثيرا.

وقفت عند الباب كالمسكين ولا طاقة لي بثمن التذكرة يدخل الناس بنظام وأنا لا أدري ما الذي علي فعله، صحيح أن التذاكر بيعت البارحة أو صباح اليوم عبر الأنترنت ولا مكان لي لكني تذكرت عادة كنت أقوم بها عند باب الملعب هناك في بلدي، أقف عند الباب حتى اللحظة الأخيرة فيحن البواب ويدخلنا مجانا.

الأمر يختلف هنا وقفت حتى كدت أفقد الأمل وأغادر حتى جاءت سيدة عشرينية، حيتني وأعطتني تذكرة.

-تفضل سيدي، هذه تذكرة صديقتي التي لن تأت.

-شكرا جزيلا، ممتن لك.

أمسكت التذكرة ودخلت خلفها وقد كان مقعدي في وسط المسرح بجانب هذه السيدة، مكثنا دقائق قبل أن يسدل الستار وتطفأ الأنوار، ثم بدأ العرض.

ورغم أني لا أتقن الألمانية جيدا إلا أني فهمت الكثير من العرض، كانت كلماتهم موحية معبرة مسترسلة فيها من التراجيديا ما فيها ومن الدراما ما فيها، مشاهد قدمت أفضل تقديم، انبهرت لا أنكر، فأنا لا أعرف المسرح في بلدي إلا في المدرسة كتلميذ أو كأستاذ، المسارح في بلدي لا مكانة لها.

عندما كنت صغيرا اعتقدت أن للمسرح مكانة كبيرة في المخطط العمراني للمدينة ولا شيء من ذلك في الواقع للأسف صورت لنا تلك الكتب أن المسرح هو عنصر الحياة لكني عندما كبرت بحثت عنه في عدة مدن وحواضر في بلدي فلم أجده، لا وجود له إلا في المدرسة التي ندرس بها. وبها أيضا نقدم التمثيليات المسرحية وبها تمثل الدولة علينا مسرحية الانتخابات المدرسة التي نتلقى بها حروفنا الأولى نتلقى بها آخر زفرة للفرس الأخير حين يطلقون علينا رصاصة الانتخابات فمن المؤسف أن هناك أشخاصا كثرا في هذا الوطن يصدقون مسرحية الانتخابات، فقد حان وقت شخصيات المسرح كي تتفرج علينا... أي شعب نحن.

المهم أنني تذوقت قطعة مسرحية لا مثيل لها تلك الليلة، المكان والموضوع والشخصيات والأجواء داخلا وخارجا. لقد كانت قطعة رهيبة جدا.

خرجت بعد نهاية العرض بذهول، إنه عالم جديد لم أعهده ولم أخف انبهاري مما رأيت، خرجت فإذ بالمطر يهطل خفيفا بالخارج وسرت حتى وصلت إلى جورج بائع الشاي الذي ألفني وصار يشعر بغيابي وقد كانت تعجبه لهجتي الممزوجة بكلمات فرنسية وانجليزية.

حتى جاءت سيدة تريد شايا، وجهها مألوف بالنسبة لي كأني رأيتها من قبل.

-مرحبا، أرجو أن تكون قد استمتعت بالعرض.

-أجل لقد كان ممتعا جدا، أنت من سلم لي التذكرة أليس كذلك؟

-نعم... نعم... وكأني رأيتك من قبل في مكان آخر.

-ربما في مكتبة آنا ريختر، أعمل هناك.

-آه.. نعم.. تشرفت بك. ايميليانا، طالبة طب جامعة برلين.

-كل الشرف لي، ياسر من الجزائر، مهتم بمجال الكتب.

-جميل. وبالمسرح أيضا.

-نعم، وبالشاي أيضا.

-هههههه.... هذا اللبناني يعده جيدا؛ لدي إعداد للغد؛ أحتاج لمشروب منبه؛ أراك لاحقا طابت ليلتك.

-إلى اللقاء

غادرت أنا أيضا بعد دقائق إلى مرقدي كي أدرس قليلا فلم يبق لي الكثير لأتم المستوى الثاني في اللغة الألمانية. فقد بدأت أحس أني أجد الكلمات والجمل التعبيرية حينما أقابل الأشخاص وحتى زملائي في العمل انتبهوا لذلك.

كانت الأيام تمر وكل يوم أعيشه بتفاصيله رغم أن البرنامج روتيني وتحركاتي قليلة، كل لحظة تمر أعيشها بحلاوتها حتى بلغت أوج السعادة حين نظمت صلاتي حيث كان ذلك أعظم إنجاز أحققه هنا بعد إنجاز الدخول من المطار.

من الصعب أن تستقيم على صلاتك تحت ظروف قاهرة، فقد مرت بي أيام في طريق هجرتي إلى هنا عشتها دون صلاة وقد كانت أيامي بائسة تلك الأيام.

كم كرهت نفسي حينها، كم أمقت الأيام التي تفوتني فيها الصلاة، كم أسعد بقضاء يوم أقيم فيه صلواتي بتمامها في مواقيتها.

كانت الأيام تمر وكل يوم يأتي أزداد يقينا أني في بلاد الماكينات، كل لحظة تمر يناديني صوت أثناءها آتيا من أعماق بعيدة في نفسي يقول لي: " لك شيء تستحقه في هذه البلاد ."

لقد صرت أتطوع في المكتبة للعمل بعد الظهر مباشرة، أمر بين الرفوف والأجنحة أبدت السيدة آنا إعجابها بذلك فقد كان ذلك خيرا لي من المقهى الذي ينغص ذاكرتي ويحي بها جراحاتي الدامية فقد اكتشفت أنهما متواطئان ضدي وأنا الفتى المثقل بالحنين، لقد صدق من قال أن راحة القلب في العمل.

أطل كل فجر من نافذتي وأحيانا أخرج إلى الشرفة أستنشق نسيما عليلا يسري في عروقي فيسلحني بالأمل، الأمل في غد أفضل.

بدأت ألج حياة جديدة، بدأت أدخل بكل جوارحي في هذا المجتمع في هذه البيئة الجديدة كأني ولدت ثانية، ثم أتذكر أحيانا بيئتنا هناك، بلدنا هناك الذي لا نحتفظ بأشياء جميلة غير الصبا وتراب داعبته أناملنا البريئة ثم أتنهد مستغفرا:" ونحن نحب الحياة إذا ما استطعنا إليها سبيلا ."

سنستطيع يا درويش ذات يوم، يوم ترتدي قلوبنا حلة جديدة، يوم نتخلص من كوابيس الوطن الذي نتركه للصوص يستمتعون بعذابنا، من هموم تمنعنا من تذكر فناء بيتنا القديم بجدرانه الطينية وبستان جيراننا الذي نتسلق حيطانه في الخريف وقت الفواكه اللذيذة بإمكاننا التخلص من أكاذيب وأساطير الوطن، لمن يبقى الوطن إذا متنا؟ لقد حان الزمن الذي نخاف على أهلنا في الوطن من الغربة، الأهالي صاروا غرباء أيها

البروي، أكتب لريتا ثانية، أخبرها أننا تائهون نبحث عن الأوطان، أننا قريبا سنتيقن أن الوطن يباع في الأسواق، أخبرها صالحها فقط من أجل هذا.

سيكون بمقدور كل واحد منا أن يعيش بسلام إذا كان وطنه كأمه وهل الأم إلا وطن؟

كنت أتساءل أحيانا.. هي.. هي ملاك؟

بعفويتها كانت ترسم كل صباح على وجوهنا ابتسامات لا توصف، أتذكر جيدا كيف كانت تنهض كل صباح لتعد الفطور، الصباح الذي تعد فيه أمي طبق " الخفاف ونحن صغار كان أجمل الصباحات على الإطلاق، لم تكن تستهويني الحلويات العصرية البتة، إنها بساطة أمي وبركة يديها عندما تعد "الخفاف" كانت كافية لترسم على شفتي ابتسامة ترافقني أياما أدثر بها تعبي في المدرسة وطريق المدرسة ومعاناتي. حتى أبناء الحي كانوا يسألونني: «من أين لأمك بكل هذا"؟

صلاة عيونها بالليل تحرس مزهرية نومنا، استيقاظنا نحن الفقراء في الصباح الباكر كان سرا وسيبقى، يقول صديقي أننا نهرع نحو المعاناة وأحيانا نحو حتفنا قلت له: "نحن نهرع نحو ابتساماتنا، نبحث عنها في كل مكان، نحن ننطلق بابتسامة واحدة من بيتنا ونطمح لنكملها بابتسامات أخرى عبر يوم شاق ."

لله درها من حياة، كيف أصبحت تلك اللحظات ترسم أحزاننا كأنها دولاكروا الحزين، لله درها كيف انقطعت تلك الابتسامات.

بالتأكيد لم تعد أمي تعد " الخفاف" في الصباح ولم يعد أبي يفتتح صباحاتنا كما كان بين مدائح صباح فخري وفيروزيات وتراتيل أخرى.

بالتأكيد ذهب كل شيء، نحن نصارع كل شيء يا أمي بلا هوادة، لقد تعودت أنفسنا على الخيبات حيث لا شيء يقال هناك... لا شيء يقال.

وأنا الآن لا أم ولا وطن، كلما استحضرت فكرة الوطن استحضرت مقولة لأحد الشباب الذين التقيتهم في أثينا كان يقول: «أمي توفيت وحبيبتي تزوجت ووطني رماني"

-2-

كانت مكتبة آنا ريختر تعج بالزوار طوال النهار فهذه البلاد بلاد علم وهذه الأمة أمة قراءة، حالها ليس كحال بلاد تركتها خلفي يوصف حامل الكتاب فيها بالجنون ووصفت في كتب التاريخ بأمة اقرأ.. ما هذا التناقض الرهيب الذي يقودني أنا بالذات إلى لجنون، إلى حيث لم يجن أحد من قبل مثلي..

تطوعي للعمل ابتداء من الظهيرة كان أحد أسباب احتكاكي بالناس بل بالقراء، أمة تقرأ يلتهمون الكتب التهاما، فتهدأ النفس في مكتبة آنا ريختر ويكف البشر عن اللغو رغم أن عادة الألمان يحرصون على السكوت وعدم الخوض في الكلام كثيرا إلا أن في المكتبة تسمع أصوات الأرواح لتضاهي عنان السماء وتبدأ منذ شروق الشمس حتى بزوغ الشفق الأحمر كشفق صحرائنا الجميلة هناك من حيث قدم أجدادي رحمهم الله تاركين خلفهم جمال تلك البلاد وغروبها الآسر الأخاذ....

بدا لي مارتن أنه غير عاد بالمرة حتى صرت أشاركه عمله نتبادل أطراف الحديث رغم قلة اتقاني للغة أمكث حينا لأصوغ جملة جميلة، أردت بعد أن أتقنت المبادئ أن أتمرس من خلال الأحاديث مع الآخرين وقد ساعدني مارتن كثيرا وتقدمت للحديث مع بعض القراء هناك فاستأنسوا لحديثي كما لمحت ذلك في وجوههم حتى قال لي مارتن ذات مرة :

-أنت فاتن يا ياسر، روحك آسرة يا فتى !

-أهكذا أبدو يا صديقي؟ لا أرى نفسي إلا شخصا عاديا.

-ليس كذلك، أنت تتسلل إلى دواخلنا كل يوم وقد حدثت السيدة آنا عنك وهي راضية عن عملك..

أنت شخص طيب الروح يا ياسر وأنا متأكد مما أقول.

-حمدا لله، وتشرفني شهادتك عزيزي.

كانت تلك الوجوه التي تزور المكتبة غير غريبة بالنسبة لي، فقد رأيت أغلبها خلال تجوالي في برلين، لا أعلم ربما لذاكرتي المفرطة ربما لتجوالي الكثير حتى أتذكر بعضهم أين التقيتهم بالضبط، ضحك جورج اللبناني كثيرا حين أخبرته.

-أنت مجنون يا رجل، أنت جمل في الصحراء هههه

-هههه أنا كذلك يا جورج، نسيت أن أخبرك أن أصولي الأولى من الصحراء.

-الصحراوي يحب المشي والأرض المستوية ولديه ذاكرة قوية، وأنت على ما أظن كذلك.

- نعم لقد مشيت حوالي 3000 كلم يا صديقي لكن جبال مقدونيا أرهقتني كثيرا حتى كدت أموت هناك وكاد عسكر الحدود أن يقتلوني. ولا زلت إلى الآن أتذكر أرياف سراييفو الجميلة بيتا بيتا وتلك العجوز التي دثرتني بثيابها حين لمست يدي المتجمدتين، لقد كانت تشبه أمي كثيرا اختلاف طفيف في لون الشعر الذي كان يشبه شعر البوسنيات.

كانت حالتي كانت معلقة بين البينين رغم اندماجي الجزئي، بقي وجودي دون أوراق في برلين ينغص يومياتي حين أتذكره، ولم أجد طريقا إليه وجورج في كل مرة ألمح له مشيرا إلى قضية إتقان اللغة حتى شككت في معرفته بأمور الوثائق وما شابهها، حتى قال لي صديقي محمد ذات يوم: «لماذا لا تسأل زملاءك هناك، دعك من الأجانب."

كان محقا فعندما سألت مارتن أعرب عن استعداده لمساعدتي في ذلك

-لا تقلق يا صديقي، غدا سأسأل لك في دائرة الهجرة والأجانب.

كان مارتن متميزا جدا عن الألمان حتى شككت في أصوله

قلت له ذات مرة مازحا: ألست قادما من بولندا؟

-كلا يا رفيقي، بل من بلاد أخرى لست أدري إن كنت تعرفها! وأظنك تعرفها حتما.

- التشيك مثلا؟ البوسنة؟ رومانيا؟

- قلت لك مرات ومرات، أنت فاتن يا رجل.

قدمت أسرتي من بوخارست ذات حرب، ذات اضطهاد ذات لجوء.

- لقد قرأت عنكم عند هيرتا مولر حين كتبت عن دكتاتورية تشاوشيسكو وتهجيركم إلى ألمانيا الغربية الرأسمالية وقبلها هربتم

إلى إيطاليا وبعضكم لجأ إلى ربوع أخرى.. عظماء أنتم اكتشفتكم حين قرأت لهيرتا..

– لم يكن لنا بد من الهجرة إلى ألمانيا الغربية، حيث أنها كانت الوحيدة التي رحبت بنا آنذاك، ونحن الذين انتقدنا تشاوشيسكو وقد اشتغل جدي بالصحافة أعواما وأدخله زبانية الإمبراطور السجن مرات قبل أن يفر.. على كل حال دلني الآن كيف بدوت لك وكيف عرفت أنني لست المانيا؟

–روحك يا مارتن، حدسي يا مارتن،... لقد كان متميزا جدا عن الألمان بروحه الطيبة جدا، الطيبة حتى الملائكية، عطفه علي منذ أول يوم واهتمامه بي ومحاولاته في كل مرة مساعدتي حتى صرت أخجل من مقابلته، كيف أقابل كرم هذا الرجل العظيم.

انتظرته ثلاثة أيام ليسأل لي في دائرة الهجرة والأجانب ثم عاد إلي بالخبر اليقين وقطع قول كل خطيب.

عاد إلي ذات مساء بخفي حنين، نسيت نفسي ذلك اليوم في المقهى حتى أبصرت ساعة الحائط هناك تشير إلى الرابعة مساءا، كسرت قانون اعتزال المقاهي الذي احترمته لثلاثة أسابيع خلت، ولا أدري كيف استسلمت ذلك اليوم، آه تذكرت.. علمت بنبإ وفاة أحد أصدقاء طفولتنا في اليونان، تذكرت أنه كان طيبا جدا خجولا حتى فكرة هجرته بدت لي غريبة، أذيع إلي نبأ وفاته صباح ذلك اليوم، لقد كان خجولا

جدا ساكتا، كان من الساكتين وخلفهم أنهار بكاء وجبال ألم، ثم تذكرت أنني لم أتصل بعائلتي منذ مدة، ثم ماذا؟ ثم احتضنني المقهى جالسا لوحدي متخذا مكانا قصيا أتساءل: أين الرفاق؟؟

وصلت في الوقت المحدد لعملي في المكتبة وجدت مارتن مستعدا للخروج.

-أخبروني يا ياسر أن لك طريقة واحدة للتسجيل في التكوين المهني هنا أو في معهد لغة ثم يحققون في الأمر وتحصل على الإجابة بعد نهاية التحقيق

-وكم يدوم هذا التحقيق؟

-ربما شهر ربما شهرين.

-حسنا سأقصد معهد التكوين المهني غدا وبعض مدارس اللغة لعلي أجد السبيل إلى مرادي.

-ربما يا صديقي سأخبر السيدة آنا بعد أيام لعلها تساعدك

-ربما نحرجها يا مارتن بطلباتنا المتكررة.

-أنت شخص طيب، لا تخش شيئا يا ياسر، ستساعدك وستجد كل ما تريد.

أدركت كلماته بعد زمن كم كانت بليغة، بعد سنوات أيقنت أن سلوكي الحسن وسيرتي فتحت لي كل باب ويسرت لي أشياء كانت تبدو لي صعبة جدا...أدركت قول جدي: كن طيب

الخلق يكن لك كل شيء، وقبل الجميع وصف الله نبيه قائلا: «وإنك لعلى خلق عظيم"

-3-

كان الشتاء رحيما معي هذا العام مقارنة بالأعوام الاخرى، أحسست كأنه سيأتيني بخيرات عظيمة كما أحس الآن وأنا أكتب في هذه الأسطر، أحسست أنه سيأتيني بأشياء جميلة جدا في حياتي رغم معاناتي التي صرت أراها جزءا من حياتي، رغم معاناتي التي زادتني صبرا ويقينا بالله، بأن الفرج آت لينتشلني من غياهب الحزن.

كان الشتاء يمطر رحمة تلامس أجسادنا كأحضان دافئة بقطرات جميلة كأنها أيام قضيتها عند بيت عائلتي الثانية ذات عام، بهية كابتسامات أناس كانوا يمازحونني كلما تبللت من المطر، كلما خرجت ماشيا دون سلاح، كلما أحدث ذلك المطر أملا في أنفسهم أنني سأبقى عندهم ذلك المساء.

الحق أن الشتاء رافقني ذلك العام، بل ربما برلين ضيفتني زائرا ومقيما، وضيفني مارتن والسيدة آنا وسعوا لي إلى حل يلملم جراحاتي الدامية التي تركتها خلفي.

كنت خائفا من الاتجاه نحو مركز التكوين المهني من أن يتم اقتيادي مباشرة إلى التحقيق ثم يعودون بي إلى الجزائر مع أول رحلة، ذكرني ذلك المقام بحال عصاة الخدمة الوطنية في بلدي حيث يتم اقتيادهم إلى المحكمة العسكرية مباشرة من المكان الذي يتم فيه القبض عليهم دون إشعار ودون إجراء إنساني حتى، فكرت بعدها أن استعمل جوازي المزور الذي جئت به

من صربيا إلى برلين ثم قلت في نفسي: "وهل سأتحول إلى شخص آخر؟ هل ستمحي هويتي إلى الأبد؟ إلى متى سأصبر على هذا الشكل؟" ثم يناديني صوت الحقيقة والعفوية من الداخل: "لا ينفع إلا الصدق هنا. .."

قررت بعد أخذ ورد...لا أنكر أني أوجست خيفة في نفسي قررت الذهاب إلى إحدى مدارس اللغة مستفسرا عن الأمر.

-مرحبا، أريد التسجيل لدروس تعلم اللغة الألمانية مع العلم أني بدون وثائق هنا.

-يتوجب عليك بالإضافة إلى صور الهوية أن تحضر لنا دليل إقامتك هنا أو شواهد تثبت مدة مكوثك هنا أو عقد كراء.

-أولا يوجد حل غير هذا؟

-عفوا سيدي هذا هو القانون هنا. يمكنك العودة إلى دائرة الهجرة والأجانب للاستفسار.

خرجت من تلك المدرسة وكان اسمها die Schule der Hoffnung مدرسة الأمل ولا أعلم هل ستحيي في الأمل كما فعل الشتاء أم لا .!!

خرجت قاصدا المكتبة لعلي أجد إجابة عند مارتن، ومن يدري.

وجدته مستلقيا على أريكة في البهو، أريكة مخصصة للاستراحة ولعشاق وضعيات القراءة، استلقى وبين يديه كتاب بغلاف جميل، ألقيت عليه التحية ووضعت يدي على حافة

الكتاب رافعا إياه لأقرأ العنوان Die Sonne von : Aprilشمس نيسان يا صديقي، أجمل شموس الأرض، تداعب ورود الحدائق وأغصان الأشجار الشامخة، شمس تلامس جدران القلب، تزيل أدران أحزاننا البعيدة، تسقي بذور آمالنا التي يهددها الدهر بجبروته وتحيي فينا أشياء وأشياء وترسم لنا كبيكاسو أو دولاكروا لوحات أراها بقلبي وتستقيها أنفسنا كلما لامس ذلك الجمال ربوع ذاكرتنا المتعبة.

انتبه إلي مارتن كملاك ومد يده إلي كعادته مبتسما في كل مرة ابتسامة القديسين.

-جئت يا ابن الصحراء وأين رمال أيامك البعيدة.

- لم أجد حلا يا صديقي، أرجو أن تساعدني فقد طلبوا مني إثبات إقامتي هنا في ألمانيا وأنا كما تعلم بدون وثائق. دلني أيها الروماني على الطريق فقد أضعته.

-كنت في انتظارك، لقد دلني منذ قليل أحد الزملاء هنا على طريقة مناسبة، تسجل في مكتب جمعية خيرية وتعطيك السيدة آنا شهادة تطوع وينتهي الأمر.

-آه لو يستقيم الأمر هكذا

-بالتأكيد سوف يحل المشكل، لا توجد مشكلة في هذا العالم دون حل إلا الموت. كن متيقنا من ذلك. فقط اصبر.

لا أنكر أني ارتحت لما جاءني به مارتن وكأنه رسول أرسل إلي ليفتح لي أبوابا كنت أراها مغلقة قبل هذا الزمان، أحيانا يرسل

الله لنا أشخاصا ليفتحوا لنا أبوابا كانت موصدة منذ زمن أو أننا لم نرها لفرط تعبنا المرهق. أشخاص يزرعون أرواحا جديدة في دواخلنا وليس لقدومهم تفسير إلا أن الله قد أراد بنا خيرا فساقهم إلينا. فألف تحية لأرواحهم الطيبة وحضورهم الجميل. أتممت يومي متفائلا نشيطا على أمل غد جميل وإن الغد لناظره لقريب.

-4-

كانت الأخبار تأتيني تباعا كلما حادثت أحدا من الذين تركتهم خلفي، أخبار بلاد ينهش الفساد جسدها كل لحظة.

لا يكتفي أصدقائي وإخوتي كلما حادثتهم بنقل الخبر، بل يقصون علي حكايات مفزعة، صراحة صرت أمل سماع هاته الأخبار.

أنا أبحث عن الأمل المتجدد، العجب العجاب، بل من المدهش، من المؤسف أن تجد أن كل شيء ماعدا الجانب العلمي صرت تعرفه، من المخجل أنك لا تريد سماع شيء عن بلادك ولا تريد أن تتكلم عنها إلا في خاطرة ربما، فلقد اكتفت أنفسنا مما عشناه ومما رأيناه ومما سمعناه حتى ران على قلوبنا إلا من ذكرى أحبة وتراب داعبته أناملنا مذ كنا صغارا ولوحاتنا في كتاب قريتنا حين كانت هادئة قبل أن يغزوها الوافدون الجدد بصخبهم وعاداتهم السيئة...

من المؤسف أني كلما حادثت شخصا تركته خلفي يبدأ في سرد أحاديث وقصص الفساد التي تنخر جسد وطني، ولا يتوقف الأمر هنا لأني تأكدت منذ زمن أن الناس هناك ليسوا ضد الفساد إنما ضد عدم الاستفادة منه وأنا أفسر بطريقتي ما الذي أوصل هؤلاء إلى هذه الفظاعة، هل النظام؟ هل هي إيديولوجية؟ هل هو مخطط قادم من هناك، من الذي يسمونه

الغرب، حقيقة أني لازلت حائرا في هاته النقطة بالذات، هل هؤلاء ضحية أم شركاء أم فاعلون أصليون في الجريمة.

إنك لا تدري معنى أن تحب أمة الفساد، أمة بغالبيتها يا سيدي.

كان هذا من المواضيع التي كنت أتداولها مع بعض أصدقائي هناك في مقاهي القرية، حيث كانت حواراتنا كلها فكرية علمية لا تروق للعامة وكنا نطرد كل شخص يأتينا بتفاهته ليطرحها كموضوع للنقاش، كانت نقاشاتنا ثرية جدا فكرت قبل أن أرحل في جعلها جلسات علمية وأدبية أحيانا إلا صديقنا أستاذ الرياضيات الذي كان يعاتبنا كل مرة قمنا بطرح موضوع أدبيا.

المهم أني كنت صابرا وكنت أندمج قليلا مع الذي يحادثونني احتراما لهم كأناس طيبين وكنت في قلبي ليتهم يفهمون أني لم أعد أحب فتح تلك المواضيع إطلاقا، أحسست أنها صارت تسبب لنا ألما دون أن توصلنا إلى حل.

واتخذت لنفسي منهجا أتعايش به مع العالم الجديد الذي ساقتني إليه الأقدار، بل ربما سقت نفسي إليه وأننا لا ننال في الأخير إلا ما كتبه الله لنا.

مرت أيام قليلة وأنا متسلح فيها بالصبر ولا شيء غيره حتى الأمل يجانبنا الطريق أحيانا ولا يبقى لنا غير الصبر سبيلا وغاب مارتن لا أدري أين ذهب وهاتفه مغلق، ثم سألت إحداهن فأخبرتني أنه أخذ إجازة من إدارة المكتبة، أردت أن

اسألها أين ذهب لكن تبين لي أن الأمر محرج جدا فالقوم هنا لا يحبون الأسئلة الشخصية، كل له حياته هنا وما بالي أنا العربي القادم من أمة لا تحترم الحياة الشخصية، أمة حيث تكون حياتك الشخصية متاحة للجميع...

صبرت مرغما حتى هاتفني هو في المساء وأخبرني أنه ذهب إلى هامبورغ هناك في الغرب.

– أنا عند أخي المريض، لم أجد من سبيل إلا الوقوف عنده، فلا أحد يقوم على رعايته، عائلتنا مشتتة يا صديقي وقضينا زمان الصبى إخوة وأصدقاء وهو اليوم بحاجة إلي. اعذرني يا صديقي سأساعدك عندما أعود عن قريب.

–لا عليك كلما نرجوه هو شفاء أخيك. هل يمكنني مساعدتك بشيء؟

– دعواتك أن يستجيب الرب فيشفيه. اذكره في صلاتك فأنت إنسان طيب.

–سأذكره، سأذكره.

ومرت السيدة آنا بجانبي ونادتني كأمي

–ميستر ياسر.

ما جديدك؟ هل سويت وضعيتك؟

–مرحبا سيدتي، للأسف ليس بعد، أحتاج لمساعدتكم وسأكون ممتنا لكم

-صار الأمر مهما فلا يمكن أن تستمر هكذا.

-أجل، لقد وجدت طريقة مناسبة وقانونية، أسجل لدى جمعية خيرية و تبقى لي فقط شهادة تطوع لأسجل في معهد اللغة وبعدها أتقدم لدائرة الأجانب.

-أنا لها، أنا لها. اتصل بي وقت ما احتجت للمساعدة وستبقى معنا.

أي شخص في العالم يتعامل معك هكذا وأنت الأجنبي الغامض القادم من بلاد غامضة، لا بد أن يكون شخصا عظيما حقا، سيدة في السابعة والأربعين تخيلتها أمي تخاطبني ولم أجد العبارة المناسبة لأشكرها، عجزت اللغات في صدري على إيجاد كلمة شكر لها. لم أكن لأجد هذا في بلدي، في بلدي يطردوننا في كل مكان، في الجامعة، في الإدارات العمومية، حتى في المدارس يتخلصون منا كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلا...

وعندما عاد مارتن من هامبورغ وجدني في حلة جديدة أخبرني بأن أخاه قد شفي من مرضه وأخبرته أني قد شفيت من "الحرقة"، قد صرت شخصا مقيما بطريقة قانونية، أني صرت حرا إلى حين فابتسم واحتضني.

-الأفراح أيضا لا تأتي فرادى.

أحسست من نبرة صوته أنه ابتسم وأحسست بأنفاس قلبه تتسلل إلى أعماقي، أحسست بفرحه الكبير لأني سويت وضعيتي، لقد فرح فرحا عظيما.

عاد في الغد وعزمته على وجبة غداء عربي عند جورج، وجبة تقليدية طلبتها خصيصا لهذا اليوم، وجبة أعلم أنه لم يتذوق مثلها من قبل، يتزاور الناس هنا في الغالب في العشاء وفي السهرات الليلية لكني كسرت القاعدة.

عزمته على غداء لأني لن أكون متاحا وقت العشاء فأنا لا أغادر المكتبة إلا عند الحادي عشر ليلا.

فرح بدعوتي هذه ولا يدري أنني تكلفت الأمر فقد توددت إلى جورج كي أدفع ثمنا قليلا وأخبرته عن وضعيتي.

-لا تفكر كثيرا في الأمر، بنصف ثمنها أيها الجزائري، أعلم أنك في بداية الطريق، ستدفع لي ثمن رحلة إلى الروهر حين تحصل على عمل.. هههه

-ولم لا يا صديقي، وإلى الدانوب أيضا. ممتن لك ولوقوفك معي هذه الفترة.

-وستعزف لي على الكمان رائعة فيروز "سألوني الناس"

-سيكون لك ذلك وأعزف لك أيضا رائعتها الأخرى

"يامرسال المراسيل"

كان جورج يمدني بالمعلومات اللازمة حول هذا البلد وأرشدني هو بالذات إلى كنيسة تعلم اللغة الألمانية مجانا وقلة من الأجانب كانوا يعلمون هذا، كان يعرفني كل مرة بجزء من أجزاء برلين الواسعة... بكل صدق كان عونا لي بالكلمة الطيبة.

عزمت مارتن ولا أعلم لحد هذه اللحظة لماذا ترسخت في أذهاننا هذه العادة، قد أبدو متفلسفا الى حد ما لكني أتساءل في كل مناسبة :

لماذا ندعو الآخرين إلى وجبات الطعام عند كل نجاح؟ ولماذا يترقبون هم ذلك؟

قال لي أحد أصدقائي أن الأمر فيه استغلال للفرح فلا يمكن لشخص في حالة غير الفرح أن يدعوك، ففي الفرح يلين قلبه ولا يحسب حسابا ماديا لما سيقدمه لنا، وقد فسر لي أبي الأمر ذات يوم أنها صدقة نقدمها شكرا لله وكنت في كل مرة أنسب الأمر للكرم والجود لدى النفس البشرية، فكنا نلقب الشخص لي ينجح مثلا ولا يعزمنا على وجبة بال: «المسمار» في إشارة إلى ضيق نفسه.

كما تساءلت دائما:" لماذا نزور المريض في بلدنا محملين بوجبات الأكل، وعلب الفواكه والماء المعدني وووو، هل يحتاج هو كل هذا؟" قد أكون متفلسفا لكني لا أرى إلا أنه يستحق دعوة طيبة وكلمة طيبة وأشخاصا طيبين يزورونه وآخرين طيبين يدفعون عنه ثمن العملية الجراحية في السر دون علمه.

وبعد كل هذا سعد مارتن بدعوتي وشكرني وتمنى لي مشوارا جيدا في حياتي وآفاقا جديدة تفتح لي.

-هنيئا يا صديقي، الآن أنت حر، الآن سنرى ياسرا آخر في برلين، لا يمكن البتة أن تكون شخصا بسيطا، لا يمكن أن

تكون كغيرك، لابد أن تكون شخصا عظيما مأثرا في هذا العالم.

زاد كلام مارتن في نفسيتي رغبة كبيرة في اكتساح العالم تذكرت عباراته في الليل حين وضعت رأسي على الوسادة.

-حسنا اليوم سأنام وغدا سأحتل العالم.

كانت كلماته رنانة، هو فعلا أطل على شرفات قلبي الواسع الذي ضاق بهموم بلاد تركتها خلفي ، كلماته لم تأتني بشيء جديد لكنها أعادت إلي تقاسيم موسيقى حياتي التي سيطر عليها الناي منذ سنوات، أحيت في أملا بغد جديد، بغد جميل بل أكدت لي أفكارا كنت أقول في نفسي من قبل أني ربما كنت مخطئا فيها.

بعد حوالي شهر من إيداعي ملف تسوية الوضعية لدى دائرة الأجانب وصلني استدعاء لاستلام بطاقة الإقامة المؤقتة ومدة صلاحيتها ثلاث سنوات.

استلمتها وتوجهت للسيدة آنا في المكتبة وأخبرتها بذلك.

-جميل يا ياسر، هكذا في وضعية قانونية، هكذا ستصبح فردا مفيدا في المجتمع، ستضيف شيئا لنفسك وستفيد المجتمع ان كنت فردا صالحا طبعا، وأظنك كذلك.

أضافت لي كلماتها رغبة في أن أبذل المزيد لأصل، أن أواصل كفاحي الذي بدأته منذ أن ولدت، فليس من السهل أن تخاطبك امرأة كالسيدة آنا، هي ليست مجرد مديرة مكتبة، هي

المكتبة بذاتها في صورة إنسان، وهل يوجد شيء في الوجود أعظم من المكتبة، ولا أعرف لماذا أتخيل المكتبة مجموعة من العقول الهادئة المجتمعة التي تتحدث بقدسية رغم اختلاف مواضيعها وأفكارها ورغم تعارض مضامينها أحيانا، المكتبة هي الأخلاق، هي الديمقراطية هي الحوار هي الثقافة هي الحضارة هي النعيم.

توجهت في الغد إلى مكتب العمل حيث سجلت نفسي كطالب عمل على أمل أن احصل على عمل جيد بأجر يكفي لمصروفاتي التي بدأت تزداد، فلا يمكن أن أبقى على نفس النسق الذي كنت عليه منذ منذ قدومي أول يوم، وضعيتي كحراق أجبرتني على العمل بأجر زهيد أجر متطوع، وعلى أن أتناول وجبة واحدة في اليوم طوال هذه المدة، كانت معاناة رهيبة، ولا أنسى لباسي الذي كنت أغيره كل عشرين يوم، أغسله فأنتظر حتى يجف لألبسه، نقص وزني خلال هذه المدة كثيرا فلم أعد ذلك الفتى المفتول العضلات، ممتلئ الوجه، كثيف الشعر، لم يبق سوى جمال عيني البنيتين الرامزتين للبراءة، براءة الأطفال وتقاسيم لحيتي المنتظمة، معاناة لا مثيل لها عشتها هذه المدة لا تفوقها إلا معاناتى قبل الوصول إلى مطار برلين اه تذكرت الآن علي أن أمزق وثائق الهوية الصربية المزورة التي قدمت بها عبر طائرة بلغراد برلين، لقد زالت كل تلك المخاوف الآن وعدت إلى هويتي، الآن يمكنني أن أخاطب رجال

البوليس: أنا ياسر الجزائري ولدي بطاقة إقامة تعالوا حققوا معي. وسأستمر في العمل كمنظف في مكتبة آنا ريختر بفخر في انتظار عمل جديد، نعم مناصب العمل هنا متوفرة ولحسن حظي أني اغتنمت المدة الفارطة في تعلم اللغة الألمانية من خلال الكتب ومن خلال الكنيسة التي أرشدني اليها جورج.

مرحبا أيها العالم، وداعا أيتها الصحراء.

-5-

والحق أيها السادة أن الله كان معي في كل ما سبق، أنا العبد القانط أحيانا والمهزوم أحيانا والمتعب أحيانا أخرى لكن الله كان معي ويفتح لي باب المخرج بعد كل ضيق بعد كل معاناة يسترني عند كل لحظة انكشاف نحو المجهول...

كم أحبك يا الله.

تتوالى الأيام يوما بعد يوم واستعدت عافيتي كلها حين أعدت الاتصال بعائلتي هناك، أخبرتهم أني بخير وأني في وضعية قانونية، كنت أخفي عنهم من قبل معاناتي حتى لا أزعجهم حتى لا يعيشوا في حيرة من أمري، ولو أخبرتهم الحقيقة لجفت دموع أمي من البكاء و لعاش إخوتي أهوال القيامة قبل قيامها رغم أن معاناتي كانت تحصيل حاصل وأنا في بداية الطريق.

أخي الأكبر كعادته لا يترك فرصة اتصالي به دون أن يوبخني، دون أن يسمعني عبارات نابية أحس معها كأني قتلت نصف سكان هاته الأرض، أخي الأصغر أنيس لا يفوت الفرصة كلما حادثني ليسأل عن موعد عودتي وعما سأحضره له معي من هدايا يتباهى بها أمام أقرانه، أمي لم تطلب شيئا غير العودة غير أن أكون بخير، هي تعلم بما حباها الله من حدس أني لن استقر بالجزائر لذلك جعلت كل رجائها أن أكون بخير

وتجنب أبي إظهار شوقه خوفا على كبريائه الذي يقول أنه ورثه عن نفسه التي كابدت ظلم المستعمر الفرنسي الذي مازال

يستعمرنا إلى هاته اللحظة التي أخط فيها حروفي التي ترفض الانصياع، صحيح أن فرنسا قد غادرت الجزائر وشمال افريقيا لكنها ما تزال إلى اليوم صاحبة القرار ومهندسة المسار، كنت أقول في كل محفل في بلدي أننا لم نستقل حقيقة، لقد ضللنا الطريق في خضم بحثنا عن الوطن، اقد اعتقدنا أن الوطن هو التراب والأهل، من المؤكد أن الذين استشهدوا والذين جاهدوا قد وقعوا على انجازات عظيمة لكني بالمقابل لا أعرف ما الذي سنقوله لأبنائنا وللأجيال التي ستأتي بعدنا !! لا أجد شيئا يستحق أن نقصه عليهم سوى أن نخبرهم أننا كنا نأكل ونشرب وننام ونتكاثر ونكتفي بالمشاهدة على ما يحدث.

وأظهر أبي اطمئنانه علي رغم نهر الحب الذي في داخله، نهر حب عذب ويقاوم شوقه بالصبر كصبر النبي.

ومؤكد أنه يواسي أمي كلما بدت تنوح لغياب أحد أبنائها، يواسيها بكبريائه بعصبيته باستصغاره لأمور كثيرة تبدوا للآخرين عظيمة وهذه صفة ورثتها عنه فلم أبال بقساوة رحلتي الشاقة منذ خروجي من البيت حتى استلامي لبطاقة الإقامة من دائرة الأجانب في برلين.

اتصل بي مارتن مستعجلا ذات مساء

-ياسر أين أجدك، أريدك أن أخبرك بشيء.

-نلتقي في المكتبة مساء عند موعد خروجك منها.

-حسنا. اتفقنا.

خمنت ماذا يريد مارتن أن يخبرني واشتعلت نيران التشويق في مخيلتي، فأنا رجل أتعبتني ملكة الخيال كما أتعبتني الذاكرة خمنت لكني لم أجد لهذا السر طريقا.

التقيته مطأطئا رأسه، صافحني على غير عادته بابتسامة صغيرة أطلقها حياء مني وهذا مؤكد، وقد كان من قبل يقابلني بابتسامة عريضة ويقهقه خلف كل حديث نتبادل أطرافه، ذهب تفكيري إلى خطب حزين قلت ربما مات أبوه لكن وجهه لا يوحي بحزن عظيم، إنما يوحي بالرحيل وهذا ما حدست، وقد أكون مخطئا.

-سأرحل يا ياسر، سأرحل إلى هامبورغ لأسكن بالقرب من أخي الذي عاد إليه المرض، لا يمكنني أن أبقى هكذا متنقلا بين برلين وهامبورغ، بين الشرق والشمال، ولا أحد هناك يرعى أخي، أنا مجبر على الرحيل، سأبحث لي عن عمل هناك وأعيش بجانب أخي، أرعاه وأطمئن على صحته كل يوم.

-ألا يوجد حل غير هذا؟

-بالطبع لا، إنه يعالج في مشفى هناك ولا سبيل لأنقله إلي هنا، أنتقل أنا إلى جانبه.

-يؤسفني أنك سترحل، يحزنني أنك ستغادرنا وقد الفتك، بل صرت أعتبرك أخا لي، صرت اعتبرك روحا أخرى أتنفس بها. محزن جدا أنك ستغادرنا.

-لا مناص من الأمر يا صديقي، أنا أيضا الفتك من أول لحظة رأيتك فيها مستلقيا على حافة الطريق متوسدا كتبك تلك لحظة لا أنساها. لقد اقترحت على السيدة آنا أن تستخلفك مكاني، أنت رجل طيب وصادق ولا تجد شخصا مثلك لا سيما وقد قمت بتسوية وضعيتك مع الإقامة وتعلمت اللغة بشكل كبير وفوق ذلك أنت رجل مثقف جدا تليق بك المكتبة.

-كنت أتمنى أن اشتغل إلى جانبك فنقضي اليوم معا كل يوم بين الكتب والقراء.

-وأنا أيضا تمنيت ذلك ولكنه القدر، أتمنى لك مشوارا طيبا ومتأكد انك ستنجح في عملك الجديد، رسالة التوصية تجدها في مكتب السيدة آنا. أراك لاحقا، هاتفني إذا احتجت لشيء، ولا أطيل عليك.

-حسنا وأنا لن أطيل الوداع لأشعر أني أطلت معك اللقاء.

صافحني وانطلق ماشيا وبقيت واقفا كالصنم في مكاني، رجلاي أصيبتا بشلل تام، أذهلني الموقف ورفعت يدي ملوحا:" الوداع يا من انتشلتني من أرصفة الطرقات ."

قضيت ذلك المساء متأسفا حزينا كقلاع تدمر وأرائك زنوبيا، حزينا كفتى مقدسي شهد دخول الصهاينة إلى القدس، كصحابي ودع رسول الله...

قدمت في اليوم الموالي طلب العمل إلى السيدة آنا مديرة المكتبة ولم يدم الإجراء طويلا، فقد كنت سجلت من قبل لدى مكتب التشغيل، في ظرف أسبوع التحقت بمنصبي الجديد، لم اعد عامل نظافة، صرت بائعا في المكتبة بدوام كامل.

بائع في المكتبة يا أمي، ليتها تأتي لتشاركني فرحتي وليت أصدقائي الذين أحبهم يأتون ليشاركوني فرحتي ليتجولوا معي في أرجائها الواسعة، لينظموا الرفوف معي وليشاركوني أحاديث الكتب والشتاء.

أعجبني كثيرا هذا المنصب الجديد العظيم بالنسبة لي، فتى قدم بطريقة غير شرعية، ما ظننت أني سأصبح هكذا، ليس منصبا راقيا لكنه مريح جدا ومفيد بالنسبة لي. سأفتح العالم كما فتح محمد بن القاسم الصين ذات عام وكما فتح محمد الفاتح القسطنطينية بعده.

ولا تقتصر مهمة بائع الكتب هنا على عرض الكتب في الرفوف، بل تتعداها إلى محاورة الزبائن حول المضامين وقضايا القراءة أحيانا أخرى. حتى صادفني ذات يوم وجه رأيته من قبل، تأملت فيه قليلا.

-امممم، ربما أعرفك سيدتي.

-عفوا، لكني لا أتذكرك جيدا.

-أنت إيميليانا، أليس كذلك، طالبة طب في جامعة برلين!

- نعم، لكن اعذرني فأنا لم أتذكرك بعد

-أنا ياسر، جزائري، تعرفنا بمناسبة مسرحية في بوتسدامر، مكنتني من تذكرة مشاهدة العرض، والتقينا بعدها عند جورج اللبناني بائع الشاي.

-أجل، أجل، أنا هي، تذكرتك الآن، لكنك حينها لم تكن تتكلم اللغة الألمانية جيدا وخلتك سائحا آنذاك.

-أنا الآن مقيم هنا وأعمل في هذه المكتبة.

-متشرفة بمعرفتك مجددا

-ولي كل الشرف.

جمعنا حديث عن روايات ستيفن زفايغ وكتب أخرى ثم انصرفت بعد أن أخذت رقم هاتفي ووعدتني بلقاءات أخرى وحيتني بحرارة.

ولا يوجد في العالم بأسره أجمل من مجتمع القراء، أحب بطبيعتي تشكيل علاقات مع القراء، أحس أنهم من جنسي من عشيرتي.

تغير توقيت عملي عن سابقه فصرت أستفيد من عطلة السبت والأحد أقضيها في التجوال في برلين الواسعة الرحبة، وعدت لما اعتزلته من قبل، عدت إلى زيارة المقاهي، يبدو أني لن أغادرهم حتى الممات حتى أنام تحت التراب، صرت لا أفرط في قهوتي يوم الأحد عند المقهى الشرقي، ورحب بي ولاحظ عودتي.

-مرحبا أيها الجزائري، لقد انقطعت أخبارك حتى خلتك قد غادرت ألمانيا.

-لا، لم أغادر، فقط ظروف جعلتني لا أتردد على مقهاكم، ظروف عملي ومعيشتي كانت قاهرة جدا.

-وهل توقفت عن ارتشاف القهوة؟؟

-نعم، أقلعت مرغما كي أكبح جموح الذاكرة، ورغبة مني في أن يحتويني عالم آخر غير القهوة، إنك لا تعرف كم كانت تحتضنني وكم سببت لي حزنا، أحبها كما أحب لأبي وأخشاها كما أخشاه.

-لكن ملاحك وجهك فعلا تغيرت، كنت تعاني من قبل، وجهك كان يقول كل شيء.

"-إذا تسال على القلب، الوجه يعطيك أخبارو " ثم شرحت له العبارة بالتفصيل كونها من لهجتنا الخالصة.

-6-

وظن أصدقائي أنني سأزور الجزائر بعد أن سويت وضعيتي تشوقوا لرؤيتي وتشوقت أنا أيضا لرؤيتهم وأحاديثنا لكنني خفت أن أكسر الريتم الجديد الذي بدأت فيه، صحيح أنني غائب عن البلد منذ ثلاث سنوات لكنني ورغم هذا البعد وبرغم كل الشوق أريد أن أصل إلى درجة ما هنا قبل زيارة بلدي، هو الخوف ربما من الهزيمة، إنني لم أصبح قويا بعد، إنني بحاجة لأن أكتسب قوة ما قبل الرجوع، أي قوة ؟؟ لا أعلم.

لكنها قوة ستجعلني أقاوم بلدي، أقاوم ضربات سأتعرض لها هناك. قلت لأصدقائي ولعائلتي أن لي ارتباطات عملية تمنعني وهي بالفعل تمنعني.

وارتفع أجري الشهري فغيرت مسكني وانتقلت إلى حي KREUZBERG، حي جميل وهادئ رغم أنه من الأحياء البرلينية القديمة.

انتقلت إلى هذا الحي وأنا لا أعرف فيه أحدا، يا إلهي ما هذه الحياة الجديدة، لا أغراض لي غير محفظة الظهر، وليس بها غير خمسة كتب وبدلة ثانية اشتريتها يوم قابلت السيدة آنا أول مرة، كانت ذلك المسكن ضيقا نوعا ما إذا قارناه بأنماط بيوتنا العربية الواسعة أو بالأحرى بيوتنا نحن القادمون من تلك الصحراء، البيوت هنا ضيقة لكنها مرتبة ترتيبا عجيبا، ترتيبا لم نألفه هناك في أوطاننا، ولا أغراض لي.

وجدته فيه فراشا بسيطا وخزانة حائطية فارغة، دافئ بالطبع وطاولة هناك إلى الحائط ملتصقة به كأنه أبوها الذي تستند إليه، نظيفة جدا كأن لا بشرا جلس أمامها من قبل وبطبعي حملت قلمي وكتبت عليها اسمي بالخط العربي ثم بالإنجليزية ثم كتبت على إحدى حوافها: " الذي يفقد الأمل كله عليه أن يكتب رواية " وعلى حافة أخرى: "الذين ماتوا نجوا من الحياة بأعجوبة ."

وفي وسطها كتبت الآية: ولسوف يعطيك ربك فترضى"

استلقيت على ذلك السرير فاستلمني النعاس بحضنه حتى استيقظت حوالي الرابعة، لابد أن يصفو ذهني قليلا فأنا مقبل على حياة جديدة ولا أغراض لي.

فقد تذكرت غرفتي في بيتنا القديم، بفوضويتها بالغبار الذي يصارعني كل مرة فيغلبني أحيانا وأغلبه أحيانا أخرى، بغرفتي الضيقة في ذلك النزل القديم الذي سكنته في الفترة السوداء، فترة تواجدي دون وثائق.

والآن أنا مقيم بطريقة شرعية وماذا بعد؟؟

بالتأكيد، ليس الهدف أن تصل إلى هنا وليس أيضا أن تمتلك وثائق إقامة، إنما أن تضيف شيئا لهذا العالم، أن تقول كلمة لهذا العالم.

اكتشفت تركيا يعد الشاورما جيدا في حيينا الجديد، بالأكيد ذكرني بتركي التقيته من قبل لكنني لا أتذكر تفاصيل لقائه

جيدا، ربما بدأت أنسى بعض التفاصيل وربما بدأ يتسلل إلي الزهايمر، المهم أنه قدم إلي طبقا لذيذا جدا جعلني أطلب منه طبقا آخر وآخر وأنا الذي لم أستمتع بلذة الطعام منذ شهور منذ الأيام الأولى لقدومي إلى هنا.

أعتقد أن بائع الشاورمة هذا سيصبح صديقي، بل هذا مؤكد، كما كان كذلك "بائع المحاجب "في بلدي.

اكتشفت أن KREUZBERG حي جميل جدا، بأزهار تزين شوارعه ونظافة لم أر مثلها في المدن التي مررت بها من قبل، تجولت عدة مرات في برلين لكنني منذ تسوية وثائق إقامتي صرت أتجول براحة وطمأنينة، صرت أتأمل في جمالها، صرت أتوقف عند كل منظر، بل إن هذه المدينة تستحق أن نتدبر فيها دهرا، جميلة كالأمهات الحانيات، كالزوجات الصالحات، كغرف الجنة المطلة على بيت رسول الله.

هل سأكتفي بنظام العمل والعودة للمنزل في المساء؟؟؟؟

بالطبع لا، ولا شك ولا ريب ومؤكد أني أحب اكتشاف هذا العالم، أحب إضافة الكثير لهذا العالم، أحب أن اعرف ماذا يساوي هذا العالم أو كما كان يقول أستاذ الفلسفة في الثانوي: "ما هو العالم ."

صرت كالكثيرين هنا أبدأ عملي كل صباح على الثامنة، وأنتهي منه عند الخامسة، ولا مشكلة هنا في التنقل، فقد اشتريت بطاقة تعبئة أدفع اشتراكها كل شهر، بطاقة تسمح لك

بالتنقل عبر الباص و الترامواي والميترو باص، بل قل إني مستمتع جدا بهذا النظام، نظام حياة يومي جميل وعمل مناسب لي جدا جدا. وهل هناك مكان في هذا العالم أفضل من المكتبة.

ولم أبق ذلك الفتى الروتيني الذي يسير كالآلة الميكانيكية فقد أحببت كثيرا عملي حتى صرت مبدعا فيه كما كان يصفني مارتن. آه كم اشتقت لمارتن، الفتى الجميل الذي رحل إلى هامبورغ.

وأنا بين الأروقة ذات يوم أتفقد بعض الرفوف استوقفتني.

-هالو ياسر، كيف حاك

-هالو إيميليانا. أنا بخير.

وأنت؟ كيف أجدك

-سوبر كما يجب.

-يبدو أن هذه مكتبتك المفضلة في برلين

-بل في العالم أجمع، منظمة، جميلة وأناسها طيبون.

-ربما أنا منهم، هههه.

- بالتأكيد، تبدو مبدعا، تبدو كأنك أقدم عنصر هنا، كأنك أنشط فرد في المجموعة، الحق أني أتذكرك أحيانا.

- وأنا أتذكر يوم التقيتك في مدخل مسرح بوتسدامر حين منحتني تذكرة الدخول، كانت ليلة جميلة ومسرحية جميلة جدا وراقية، دعيني أخبرك أن ذاك أول عرض أحضره هنا في ألمانيا.

-شرف لي إذن أني قدمت لك التذكرة.

-لقد أرجعتني إلى زمن جميل، زمن كنت مشرفا على فرقة مسرحية هناك في وطني.

-سوبر، وليتك تكون عضوا في مجموعتنا المسرحية، سأحدث أصدقائي في الأمر.

-وهل هناك شروط للانضمام؟

-لا، فقط تذكرت انه يجب أن تكون مسجلا في الجامعة.

-ذاك ما أفكر به، يجب أن ألج الجامعة، بالتأكيد سأختار تخصص لغة ألمانية.

-جامعة برلين تناسبك، قريبة من مقر عملك، وفيها مقر جمعيتنا المسرحية.

-أتشرف بذلك

-ولنا كل الشرف

رحلت إيميليانا. ولا أنكر أني سعدت بفكرة الانضمام الى الفرقة المسرحية، فكرة راقية جدا في حد ذاتها. لا توجد هناك حياة مثل المسرح. المسرح حياة ولقد حان الوقت كي يأتي أبطال المسرحيات كي يتفرجوا علينا. خصوصا في وطني، لا توجد مسرحية كالتي تحدث منذ 1962، بالتأكيد سيقبع أبطال المسرحيات وأبطال الأفلام أزمانا يتفرجون علينا....

أذاك وطن أم مبغى، لنفرض أنه وطن فكيف شكل الجحيم. إذن؟

عدت ذات مساء إلى بيتي متعب قليلا من العمل، فتحت الباب فوجدت رسالة. فتحتها:

"تحية طيبة لك، أنت مدعو للسهرة عندنا، لجلسة هذه الليلة، موعدنا عند التاسعة مساءا.... أرجو أن تقبل دعوتنا.... توقيع: ميكائيل هوفمان، جارك في الشقة المقابلة. "

-يا إلهي، مفاجأة طيبة أن يدعوني ذاك المسن إلى بيته.

اه تذكرت، إنه يعيش فقط مع زوجته، انتبهت لهم في الأيام الأولى وبعدها نسيت الأمر، فأنا لا أحس منهم أحدا إلا همسا حتى أني خجلت أحيانا من كوني ربما أزعجتهم بحركاتي داخل منزلي، فأنا رجل فوضوي لم تكف سنة واحدة من وجودي بين الشعب المنظم كي أتخلص من فوضويتي.

سرتني هذه الدعوة كثيرا وسعدت بها، إنها التفاتة عظيمة وأنا في بلاد غريبة.

حسنا، ماذا سآخذ معي، بماذا سأتخطى عتبة بابهم، فنحن في عاداتنا هناك لا ندخل البيوت أول مرة فارغي الأيدي، هذه عاداتنا هناك ولا تفسير لي لذلك، لكن ماذا عن عاداتهم هنا؟ بالتأكيد ليسوا مثلنا

خرجت للعشاء وفي طريقي اشتريت باقة ورد ثم مررت بمحل حلوى شرقية فاشتريت حبات حلوى شامية، قلت في نفسي ربما تروق لهم.

هل ترى يليق هذا بمقامهم، بقيمة هذه الدعوة الطيبة من أناس طيبين كما يبدو، المهم أني هكذا نويت وهذه عفويتي ولا أحسن في الغالب التكلف.

طرقت باباهم عند التاسعة بالضبط، قابلتني تلك العجوز الحانية، رأيت في عينيها أمي، الحق أني قاومت دموعي حين رأيتها، مسنة أخذ منها الزمن الكثير، أخذ منها كل جمالها عدا تلك العينين كعيني أمي الجميلتين.

-مرحبا أيها الجار الجديد. سلمت علي وقبلتني على خدي.

-مرحبا سيدتي. أردت أن اسميها "يا خالتي" ثم ترددت فربما لا يليق ذلك.

- تفضل أيها الجار.

صوت زوجها قادم من هناك.

دخلت صالة الضيوف وقد أعدوا مائدة صغيرة، بسيطة لكنها عظيمة عظم المقام.

سلم علي وأمسكني من يدي.

-مرحبا، أنا جارك ميكائيل وهذه زوجتي مارغريت سعدنا باستضافتك.

-وعظيم الشرف لي، أنا ياسر، واعذروني أني لم أتواصل معكم منذ قدومي.

-لا عليك، أنت أجنبي ومن واجبنا إكرامك، فنحن قبل عقود كنا أجانب هنا.

-ممتن لكم ميستر ميكائيل، هكذا لا أحس نفسي غريبا هنا.

-لغتك سليمة إلى حد ما، ربما قدمت منذ مدة صغرك. تساءلت مارغريت.

-منذ سنة وثلاثة أشهر فقط، تعلمت أشياء كثيرة.

-سوبر، جميل انك اندمجت بهذه السرعة، حالفك التوفيق.

نحن من أصول بولندية، وقدمنا بعد الحرب الثانية، اشتغلت طبيبا في مشفى بهامبورغ ثم هنا ببرلين حتى التقاعد وزوجتي القصيرة هذه اشتغلت أستاذة للأدب البولندي.

-القصيرات هن الجميلات، هن القريبات من الأرض الساجدات لله المحبات لرجالهن.

-واااااو جميل يا ياسر، صاحت مارغريت.

وأعقبها ميكائيل ابتسامة عريضة على محياه.

تبادلنا أطراف الحديث لمدة ساعتين تقريبا وقدمت لهم تلك الحلوى الشرقية التي دائما ما أنسى اسمها، واستعذبتها ألسنتهم، تحدثنا عن الوطن واللغة والسياسة والحرب والحديث معهم شيق جدا جدا، لولا أني خفت أن أثقل عليهم لقضيت الليلة عندهم.

وحين اعتذرت عن تناول النبيذ اعتذرت لي مارغريت وقدمت لي عصير البرتقال مكانه.

ودعتهم على أمل لقاء جديد. وشكرت الله على ذلك فالجار الطيب نعمة، إنهم طيبون ومتأكد من ذلك.

وحين عدت إلى غرفتي واستلقيت على فراشي بدأت الذاكرة تنغصني.

تذكرت أمي التي تركتها هناك وأختي وكل الجميلات اللواتي تركتهن خلفي، لقد أحيت في عينا مارغريت الشوق إلى أمي فأمي أيضا فقدت معالم الجمال واحتفظت بجمال عينيها، إنه ألم الذاكرة، العدو الذي لا ينام.

تذكرت أيضا الوطن واللغة وليل قريتنا الهادئ وصباحات بيتنا القديم، ثم التفتت إلى هاتفي: إنها الساعة الواحدة صباحا ولا بد أن أنام... اه تذكرت غدا يوم السبت يوم عطلة، لن استيقظ باكرا.

هكذا صممت لكنني وجدتني مستيقظا باكرا كالعادة، بل مستيقظ بأريحية دونما عناء النهوض مثل أيام العمل. لا أدري ما السبب، هي أسطورة لكنها حقيقة، نستيقظ أيام العمل بشق الأنفس وننهض أيام العطل دون منبه، هل هي الرغبة؟

هل العمل كابوس الحياة؟

استيقظت أيها السادة وقبل أن انهض من فراشي رن الهاتف.

هالو، من المتصل؟

ايميلينا هل عرفتني ميستر ياسر.

-اجل عرفتك مرحبا طاب صباحك

-اليوم يوم عطلة، أين تتواجد يا ترى.

-في البيت، لم أخرج بعد

-إن شئت التقينا

-حسنا، أين أجدك

اختر أنت مكانا.

-قرب مسجد الاستقلال، بجوار حديقة آرفروفر.

-حسنا، الملتقى هناك.

خرجت وقد ارتديت بدلة جديدة اشتريتها، معطف بني حذاء بني ناصع، بنطلون اسود. شكرا لعملي الجديد، لراتبي الذي مكنني من تحسين هندامي والاطلاع إلى أشياء كانت تبدو لي بعيدة.

ألقيت عليها السلام، ومشينا مترافقين، لم نحدد وجهتنا لكننا بالصدفة ولجنا مقهى قديم.

-أنت تحب المقاهي يا ميستر ياسر وهذا المقهى قد يعجبك، قد يأسرك. ماذا تقترح يا ياس.

-وماذا غير القهوة.

-هههه حسنا، لقد بدأت أدمنها مثلك.

وقد صادف جلستنا أصوات شرقية يطلقها صاحب المقهى من حاسوبه الشخصي. صادفتنا أغنية كاظم: "أجلس في المقهى ."

-لكني لا أفهم لغتكم رغم إعجابي بالأنغام، تساءلت إيميليانا.

-أترجم لك ما يقول مقابل أجر هههه.

-أوافق، المهم أن أفهم، هههه

-إنه يقول :" أجلس في المقهى، منتظرا أن تأتي سيدتي الحلوة ."

- هل كنت تنتظرني؟

-لكل مقام مقال، ربما يقصد بالسيدة الحلوة : القهوة.

-لكن القهوة التي تتناولها أنت فيها الكثير من المرارة.

سأشتري ريشة عظيمة وأكتب بها على جدران العالم: المرأة كالقهوة كالحياة في: الذوق والمرارة والإدمان.

-فكرة فلسفية قد لا أفهمها ببساطة، لكنك أسير يا ياس، أسير لأشياء ما.

هذا المقهى يذكرني بطقوس أبي في الصباح، عندما يشعل المذياع ويراقص فنجان قهوته، يتناغم مع أغنيات تختارها برامج الصباحيات، على وقع صباح فخري، فيروز أو وديع الصافي.

هؤلاء يستحضرون الأماكن ونحن العرب نشتاق للأماكن، هذا المقهى له كراس تقليدية تقاوم إعصار الزمن، إعصار المودا الذي يضرب البيوت فيكاد يقتلعها من جذورها.

ذلك المطبخ الذي كان يتوسطه أبي كل صباح بكرسيه يبقى في ذاكرتي رمزا للشموخ رغم بساطته.

كالمدرسة ذلك البيت، ذلك المطبخ، لا تستطيع أن تغادره إلى المدرسة دون المرور به، رشفات القهوة عندما يرتشفها أبي تنطقه حكمة، بل إنها تجعله في كثير من الأحيان ينسج جملا وكلمات منمقة كاللوحات الزيتية.

ويستحضر قصصا صغيرة يقصها قبل أن احمل محفظتي ذاهبا إلى المدرسة أو لوحتي ذاهبا إلى الكتاب.

هذا المقهى الذي يجمعنا الآن يأخذني إلى بيتنا القديم، إلى تلك الطقوس التي رحلت بعيدا إلى بعيد، تبا لها، كالبشر تتقن الرحيل.

وبعد أن رحلنا إلى بيتنا الجديد منذ سنوات لم يعد أبي يراقص قهوته كما كان ولم تعد فيروز تبدأ ولا فخري ولا ناظم يبدؤون صباحاتنا ولا حتى تلك الكراسي حافظت على كبريائها، لقد اتخذت هناك خلف البيت موطنا، هامدة كالبشر، كما يرحل البشر.

هذا المقهى يجعلني أتيقن أن السعادة تصنعها الأماكن وترسمها الطقوس وتنمقها الكلمات.

لست أدري، ربما كان بيتنا أيضا ينتمي إلى المدرسة أو هو قسم منها، ربما المقهى أيضا يصنع السعادة، عندما تجلس فيه لوحدك تأوي إلى ركن شديد، تتابع رشفات قهوتك رشفة بعد رشفة لا تنازعك فيها أيادي اللئام ولا تتطفل على جمالها وذوقها عنجهية البشر.

هذا المقهى أتمثله الآن دولاكروا يحمل ريشة ليرسم لي لوحة يستجمع فيها بعضا من أشلاء وطني المتناثرة.

-كأني لا أفهم كثيرا مما تقول.

-جلستك معي هذا الصباح أحيت في أشياء وأشياء، من ذلك الوطن الذي تركته خلفي، من ذلك المنزل الذي غادرناه و غادرتنا معه طفولتنا البريئة، طفولتنا التي لم تعرف للحزن معنى.

كبرنا وصرنا نبحث عن طفولتنا، عن الطفل المختبئ بين أضلعنا، بين حواسنا.

كبرنا وانطلقنا نبحث عن الطفل بين غياهب القلب، عن صلاة واحدة، عن آية واحدة، عن دعاء واحد ينقذنا من دهاليز التيه الذي يسكننا، التيه الذي لم تجد فيه نفعا عقارب بوصلاتنا.

كبرنا وذاك الطفل لم يكبر، يحارب كل طقوس الدجل الذي يسكننا، كل جيوش العتاب وقوافل التشرد والتشرذم والكبرياء.

لم يكبر ذلك الطفل رغم دسائس الزمن ومكائد التجبر وتقاسيم ألف عود يعزفون على ترانيم الحزن والشجن، رغم ألف ناي يبكي لطغيان هؤلاء البشر.....

-امممم، فهمت قليلا.

-أرجو أن لا أكون قد أثقلت عليك، أنا فقط استحضرت روح بيتنا القديم التي تقاوم جبروت الحياة.

-روح الطفل الذي يسكننا نقهر بها ذلك الجبروت وبداياتنا تعلمنا كيف نقاوم ضربات الموج المتلاطم.

-لنحافظ على الطفل بين أضلعنا، لينقذنا من الحياة. لنحب بداياتنا.

-قد فهتمني يا إيميليانا، قد فهمتني.

-أنا لست بعيدة جدا عنك، هنا فقط بالقرب منك.

وحين انتبهت إلى الساعة في يدي، كانت الواحدة ظهرا، يمر الوقت بسرعة حين نحدث الأقرباء جدا آو البعيدين جدا، الوقت لا يحب أولئك المتخذين مكانا وسطا بين هؤلاء وهؤلاء.

افترقنا على أمل لقاء جديد وقفلت راجعا، سأعود لمنزلي لارتاح قليلا...

أخذت قيلولة لمدة ساعة ونصف وهي المرة الثانية منذ قدومي إلى هنا، أول مرة كانت يوم وصولي إلى غرفة الفندق حين خروجي من المستشفى حين أفلتت من شرطة المطار، آه. كدت أن يلقى علي القبض، آه كدت أن ألج السجن مرة

أخرى ثم يتم ترحيلي إلى الجزائر، آه كيف كانت لي الجرأة لآتي بجواز مزور إلى هنا، آه آه آه.

-7-

منذ أن رحل مارتن إلى هامبورغ افتقدت لشخص أتحدث معه في أحاديث خاصة، كان مارتن جميلا جدا، جميل الروح والعقل واليوم لمست قليلا من الراحة في الحديث إلى إيميليانا نحن بحاجة دائما إلى أشخاص نتحدث إليهم بأريحية تامة، نبوح لهم بأحاديث الوطن والحرب والحب وأحاديث أخرى، بل نحن بحاجة إلى الغرباء في الكثير من الأحيان لنبوح لهم بأحاديث كنا ساكتين عنها لعقود، وحدهم الغرباء ينفسون عنا صراعات الذات وآلام الذاكرة، والكتابة أيضا تفعل ذلك وهو سر المخطوطات التي تترامى في طاولاتي أينما حللت.

الكتابة تحررنا حين لا نجد أهالينا.

صحيح أن يومياتي أغلبها أحاديث إلى زوار المكتبة ومرتاديها لكنها تبقى أحاديث علمية فكرية لا تلامس جدران الروح البتة، لكنها مدعاة لراحة النفس وطمأنينتها.

ثم اشتريت حاسوبا وأغراضا أخرى كنت بحاجة إليها، لقد تحسنت حالتي المادية بشكل واضح منذ أن التحقت بمنصبي الجديد، قل إني صرت مواطنا عاديا أتطلع لأشياء قد تبدو مبدئيا بعيدة جدا لكنني بطبعي طموح وأبني كل طموحي على الله حتى في أيام فقري المدقع ومعاناتي التي كادت أن تودي بحياتي.

زارتني ذات خميس إيمليانا وزملاؤها إلى المكتبة، بدت سعيدة جدا مرسل ابتسامة من هناك ترى على بعد أشواط. حيتني وعرفتني بأصدقائها الذين قدموا معها.

-مرحبا ياس. أسعدت مساءا

-مرحبا يا ايمي.

-هاهم أصدقائي وزملائي، المسرحيون الذين حدثتك عنهم. ميشال، روسيل، ريتا، البرتو.

-متشرف، أهلا وسهلا بكم، سعيد برؤيتكم.

-كما قلت لك يسعدنا انضمامك إلى فرقتنا، لكن يتوجب أن تكون مسجلا بالجامعة لأمر تنظيمي كما تعلم، فهذه الفرقة تعتبر ناد مسرحي جامعي وتخضع لقانون النوادي الجامعية، ولا أستبعد تسجيلك في الجامعة.

-لقد راسلت صديقي محمد هناك في الجزائر كي يرسل لي الوثائق اللازمة ولن يطول الأمر لأكون معكم.

-أرجو أن تروق لك صداقتنا وأن نسعد بوجودك إلى جانبنا. أضاف ميشال.

-بل أرجو أن أكون عند حسن ظنكم، فلست عبقريا كما أخبرتكم إيمي

-بل أنت كذلك ولا داعي لتتظاهر بالتواضع، أنت مميز جدا يا ياس وليس الكل مثلك.

أردت أن اشرح لهم أني شخص عادي وأني مجرد مجتهد لكن إيمي واصلت المدح وتركتني عاجزا عن مجاراتها.

ودعوني بعدها بابتسامات بريئة مشرقة وابتسمت لهم ابتسامة محب وابتسمت لي إيمليانا ابتسامة ملاك في سريرة شاعر وابتسمت لها ابتسامة رجل كلاسيكي يبحث عن الحياة.

وهو الحق بعينه، فأنا جئت هنا باحثا عن الحياة، عن الحياة لا أكثر.

فخلفي هناك في وطني لا نعيش، إنما نقضي حياتنا في سعي لأن نعيش، نحن دائما نحيا على أمل أن نعيش.

جئت إلى هنا بحثا عن الحياة لأني مثل الكثيرين في وطني تعبت من المشي رغم أن الأساطير تقول أن المنطقة التي قدم منها أجدادي مستوية وعشائرنا منذ القدم أتقنت المشي وبرعت فيه، أنا مثلهم أحب الحياة ولكني تعبت من المسير.

لا أعرف لماذا كلما أحسست بالتعب تحضرني جملة قالها لي أحد الأساتذة في الجامعة، كان يأتي ماشيا متثاقل الخطوات ويقضي معظم حصة الأعمال الموجهة مبتسما أحيانا ويحكي لنا عن ليالي الريف في قريته التي جاء منها أجداده وتقع شمال سطيف، يستذكر ذلك كل مرة، كل حصة، يحكي لنا أحيانا عن جلسات الدومينو في الليل في مقهى قريته الصغيرة، عن جلسات الشواء خلف الجبل الذي تستند إليه قريته، عن موسم الحصاد عندما كان صغيرا، عن الجلوس مع أصدقائه الساكنين

في القرية خلف الجبل مقابلين مدينة بجاية وشواطئها، عن أغنام عائلته حين كان صغيرا، عن مزامير الرعاة خلف ذلك الجبل، عن أعراسهم التي تدوم شهرا كاملا دون توقف... عندما وجدني أتفاعل مع حكاياته استأنس بي وقربني إليه، قلت له ذات مرة: "لماذا لست مثل الآخرين، لماذا لست أستاذا جامعيا باحثا، لماذا لست كبعض الأساتذة تسعى لإحكام قبضتك بتولي منصب في الإدارة، لماذا.... ؟ لماذا...؟"

كان أحيانا يجيبني بطريقة دبلوماسية، أحيانا يبرر ذلك بكونه مشغول وأحيانا بكونه لا يحب محيط الجامعة.

وحين بالغت في النقاش أجابني بعبارة عظيمة: "لقد أحببت الحياة حتى التعب."

كان في الحقيقة شخصا عظيما إلى حد كبير، في الحصص التي يأتي فيها نشيطا يجعلنا منتبهين كأن على رؤوسنا الطير، يجعلنا في أهبة للنهوض لتقبيله، زارعا فينا أحيانا الرغبة الجامحة لاتخاذه صديقا دائما لنا. على قدر حبنا له يجعلنا نتأمل كثيرا في هذه الحياة. قال لي ذات مرة: "إياك أن تكون شخصا مدركا في هذا العالم، إياك أن تقع في فخ الإدراك، إياك أن يستولي عليه التفكير، ستقضي حياتك باحثا عن الحل ولن تجده، ستقضي حياتك محاولا فهم ما يجري ولن تفهم في الأخير، هذا العالم ملك للأغبياء ومرضى الزهايمر."

الأخبار التي كانت تأتيني من الوطن تحيي فيا جراحا عميقة، يا إلهي كأن الألم يسافر معنا حيث ذهبنا.

والحق أنه في هذه الحياة لا حل لنا إلا الاستغفار والقناعة بما كتبه الله، لا يوجد شيء في هذا العالم يساوي الرضا بما كتبه الله لك، لكي تعيش سعيدا يجب أن لا تحاول فهم الشيء الكثير، افهم قليلا وعش سعيدا....

لكننا من فرط ذاكرتنا لا نستطيع أن ننسى، أنا مثلا بطبيعتي لا أعرف كيف أنسى، الذاكرة هي عدوي الدائم الذي لا يفارقني حتى أسكن تحت التراب، حاولت مرارا وتكرارا أن أتعلم النسيان دون جدوى، بحثت عنه في الأسواق، سألت التجار المتنقلين والقادمين من البلدان البعيدة عنه فلم أجده، اعتكفت في المساجد فما زادت ذاكرتي إلا قوة. ما هذا العالم، ما هذه المصيبة التي ترافقنا منذ ولادتنا حتى نتخذ مساكن تحت التراب.

لو كان بإمكاننا أن نغرز خنجرا فنستل الذاكرة لغدت الحياة جنة، وهذا هو سر الموت: حين تنهكك الذاكرة تخيرك بين اثنين إما أن تغادرك هي فتكمل حياتك بالزهايمر أو تغادر أنت لتتركها وحدها وهي في الأخير لا تبكي لفراقك، ستبكيك الأماكن يا سيدي.

كلهم سينسونك كأنك لم تكن.

-8-

الأخبار التي كانت تأتيني من الوطن هي التي جعلتني أيها السادة لا أفكر في العودة، نحن في الغالب لا نطيق غير عائلاتنا والتراب الذي داعبته أناملنا. تلك الأخبار أحيت في جراحاتنا الدامية وكأني لم أسافر. وما فائدة السفر إذا كانت أحزان أوطاننا ترافقنا؟؟

ولم أجد سلاحا آخر غير البوح يخفف عني صداع الذاكرة نكتب لنتحرر ونتحدث لنستريح كما يستريح المحاربون.

أكتب في دفاتر مشتتة في غرفتي كلما آلمني موقف ما، طبعا مواقف تصلني من وطني هناك، لا أخفي أني كنت ناسيا أو بالأحرى ذاكرتي كانت ساكتة عنها. أحيانا الذاكرة نتعبها ثم نبحث لها عن خيمة تستريح فيها.

ولم يكن لي أحد هنا أبوح له فكل الذين أعرفهم هنا يعيشون حياة طيبة، ذاكراتهم غير متعبة، لا أحزان لهم، ولا حزن كحزن الوطن.

منذ أن رحل مارتن إلى هامبورغ لم يعد لي شخص أحادثه هنا، فقط إيميليانا قريبة نوعا ما، أحسستها قريبة مني منذ آخر حوار دار بيننا في ذلك المقهى لذلك بادرت واتصلت بها وتواعدنا أن نلتقي ذات سبت عند المقهى المعهود لعلنا نرتاح

قليلا من ثورات دواخلنا، لعلنا نتبع مرضى الزهايمر فهم الغالبون.....

يجمعنا القهوة ويجمعنا المطر وتجمعنا قصائد وحكايات وأناشيد الذاكرة.

-مرحبا ميستر ياسر، أسعدني اتصالك بالأمس، فأنت البعيد القريب هنا.

-أرجو أن أكون قريبا، فنحن نحتاج للقرب في زمن البعد ولا أنكر أني أحب البعد في الكثير من الأحيان، لا أدري كيف تعلمته لكنني تعودته بالتأكيد.

-لكنني أعرف أن شعوب المتوسط تتقارب كثيرا، ولديهم علاقات مميزة ويتبادلون الزيارات كثيرا ولا يطيقون البعد.

-هم كما وصفت، وأنا أيضا أحب القرب لكن ظروفي القاهرة جعلتني أتيه أحيانا في ثنايا البعد، في ثنايا الصمت.

يا إلهي، كلما حادثتك ذكرتني بظروف أسرتي قبل الوصول إلى برلين.

-لستم ألمانا أصليين؟

-بالطبع لا، ألم تلاحظ طباعي، ألا ترى أنها لا تشبه طبائع الألمان؟

-لاحظت ذلك، لكنني فسرت ذلك بثقافتك، قلت ربما أنت مطلعة على الثقافات الأخرى.

-نحن رومانيون يا ياس. قدمنا في الثمانينيات، هربت أسرتي من بطش دكتاتورية تشاوشيسكو آنذاك.

-اه... قرأت عنكم في كتب هيرتا مولر، هي أيضا رومانية مثلكم، لقد عانيتم كما عانت الكثير من الشعوب في هذا العالم البائس.

-نعم لقد عرفت بوخارست آنذاك بمدينة البؤس، وجدي قتل هناك لأنه تأخر عن الالتحاق بالجيش في رحلته إلى موسكو.

-الويل للتاريخ، للطغاة، وكل اللعنات بمزوري التاريخ، الجحيم لكل الحكومات، لكل من جهل شعبا متعطشا للحياة

-وأنت. هل عانيتم هناك من الدكتاتورية؟

-آه يا إيمي لو تعلمين، نحن عانينا من كل أنواع الاستبداد، تذوقنا كل الآلام، كل الآلام.

-لكنكم على الأقل لم تجبروا على مغادرة أوطانكم.

-وماذا أفعل هنا أمامك في هذه اللحظة؟ أنا مهاجر يا سيدتي.

لا أعلم ماذا يدل بالنسبة لك أن تكون مهاجرا من بلد ليس في حالة حرب وفي القرن الواحد والعشرين. شغلي اسطوانة عقلك قليلا.

-في الحقيقة لا أعرف شيئا عن بلادكم ولا عن حياة ضفاف المتوسط.

-أنا لها، أنا لها. أصغي فقط سنمكث هنا لسنوات على طاولة هذا المقهى.

كان بيتنا قديما جدا، مهترئا، وأسرتنا متوسطة العدد، أسرة قدمت من هناك من الصحراء الواسعة وقبلها كان أجدادنا في صحراء المغرب وقبل ذلك كانوا في الجزيرة العربية كما قال ابن خلدون. أجبرتها فرنسا على المغادرة في السنوات الأخيرة للثورة التحريرية وقد حاصرت جيوش المستعمر ديارنا فتركناها مكرهين لاجئين نحو الشمال ناجين بجلودنا بل مجبرين على الرحيل تاركين خلفنا ذلك الهدوء الآسر الأخاذ.

اتهم المستعمر الفرنسي أجدادي آنذاك بالتواطؤ مع المجاهدين، بتدبير الكمائن بالخيانة معتقدا أنهم كانوا موالين له، اعتقلت قوات المستعمر خال أمي واقتادته إلى السجن ولفقت له تهمة الخيانة، كان خال أمي مقاولا آنذاك ويعقد صفقات مع الإدارة الفرنسية، صفقات بناء وترميم وشق الطرقات، لم يظهر عداءه لفرنسا بتاتا، كان أقدر على الكتمان من أي فرد آخر في هذا العالم، يعقد صفقات مع المستعمر ويمون المجاهدين المرابطين في نفس الوقت. هرب من السجن بعدها بمساعدة ضابط فرنسي قال له قبل أن يساعده على الهروب كلمة بقي خالي يتذكرها طيلة حياته: «لا يمكن لذكي مثلك المكوث هنا في السجن، اذهب فإن هذا العالم يحتاجك ."

وما بقي من أفراد الأسرة هناك بعد الاستقلال اضطهدهم نظام هواري بومدين متهما إياهم بالتخابر مع العقيد شعباني. فهربوا هم الآخرون.

فر أجدادي نحو الشمال وحملوا معهم أحلامهم كما أحمل أنا معي حلمي إلى هنا... إلى الشمال تلجأ الأحلام.

انخرط أبي بعد الاستقلال مباشرة في صفوف الجيش الشعبي الوطني بنية خدمة الوطن معتقدا أن الوطن قد عاد لنا، انخرط بكل عزم كما انخرط الآلاف، كان فتى يافعا منتشيا بفرحته بزواجه من ابنة ابن عمه، الريفية ذات العينين السوداوين المائلتين إلى الزرقة، والعين السوداء رمز الجمال في الجنوب هناك.

عين بن بلة رئيسا ولا أحد يعلم إلى غاية هاته اللحظة كيف تم تعيينه وعلى أي أساس. كان النزاع قائما بين جهات عدة، تمركز آيت احمد في منطقة القبائل وتمركز العقيد شعباني في الصحراء وجماعة وجدة بقيادة بومدين تمركزت بالعاصمة.

أيدت فرنسا جماعة وجدة ولا أعلم لماذا!! هل هو الخيار الذي يخدم مصالحها، ربما نعم. وماذا حدث بعد ذلك؟

أشعلت فرنسا نزاعا في الجنوب الغربي وهو ما يطلق عليه "حرب الرمال"، بادرت المغرب بالتصرف في منطقة بشار وتندوف مصرحة بأنها ملك للدولة المغربية. وفي المقابل حشدت حكومة بن بلة ووزير دفاعه بومدين الجماهير وأقنعت شعباني

وآيت احمد بالانضمام بجيشيهما إلى جيش الوسط والانطلاق من هناك، نجحت الخطة، تم رد القوات المغربية خائبة الى ديارها. عادت الجيوش جميعها تقريبا إلى العاصمة، قلة فقط من عادت مع شعباني وآيت احمد، وهنا بالفعل بسطت حكومة بن بلة وبومدين قبضتها على السلطة، اغتيل شعباني بعدها في وهران وفر آيت احمد إلى سويسرا.

لماذا حدث كل هذا!! لماذا اشتعل النزاع بين الجارتين الشقيقتين؟ ولماذا الفرقة قبلها بين الجيوش الثلاثة؟ هل إرادة فرنسا هي من تغلبت في الأخير؟؟ لا أقول أني لا أعرف الحقيقة لكني أحتاج لمجلدات كي أرويها.

استقال أبي بعدها مباشرة من الجيش وعاد إلى القرية متعبا.

عاد ليخلو إلى نفسه وأسرته وزوجته ذات العينين الجميلتين عاد معتزلا العالم..

أسرتنا اتخذت من مكان هناك قرب سفح الجبل موطنا لها والتحق أبي بعدها بإحدى الشركات الوطنية موظفا بسيطا مستمتعا بحياته البسيطة بعيدا عن صخب الحياة.

أنجبت سوداء العينين ثلاث بنات وثلاثة أبناء قبلي وسعدت بهم جميعا عدا ياسر الذي بدا لها متمردا.

قضيت صباي ألعب في تراب قريتنا، كان بيتنا يبعد قليلا عن بيوت أهل القرية لذلك كنت أستمتع باللعب مع أبناء القرية،....

كنت أحب الحياة كثيرا كثيرا.

أغضب أحيانا فأقوم بردات فعل غير مقبولة إطلاقا، قمت بضرب أحد أبناء الحي ذات يوم ضربة أعجزته لمدة شهر عاقبني بعدها أبي عقابا عظيما جعلني أنسحب من الحياة قليلا، جعلني أميل إلى الوحدة وأندم على مخالطة الناس، نفس الشعور حين صفعتني الحياة بعد سنوات قليلة من تخرجي حين ندمت وانسحبت وصرت أتحاشى مخالطة الآخرين، أبي كالحياة، ليته صفعني أيام الجامعة أو عند تخرجي.

تلك العزلة دفعتي لاكتشاف عوالم جديدة، كنت أحب اللعب حبا عظيما ثم صرت أمقته.

اندفعت إلى عالمين جديدين

عالم القراءة، حين لمحت أختي تتصفح كتابا، منظر شدني كما تشدنا صدور أمهاتنا في الصغر إليها.

اقتربت منها بهدوء.

-أهلا ياسر عزيزي، تقدم لأريك شيئا جميلا.

-امم حقا.

-هذا كتاب يا عزيزي وأنا أشعر براحة كبيرة حين أقرأ، إنه ممتع.

-هات لأرى.

يا بهجتي حين لامست أوراقه ومضيت أتصفحها وأتأمل في شكلها وترتيبها، وغلاف الكتاب الخارجي الملون المزخرف.

ثم قرأت عنوانه: "ألف ليلة وليلة ."

ضممته إلى صدري وقبلته، تلك كانت أول مرة أقبل فيها كتابا وصارت سنة مؤكدة سننتها لنفسي. تلك كانت العدوى وأي عدوى، ما أجملك أيتها العدوى وما أجملك يا أختي.

كانت قراءتي للعنوان أقصى ما فعلت فلم أكن أحفظ إلا الحروف آنذاك، لألتحق بعدها بكتاب قريتنا أين بدأت مسيرتي مع الدراسة والقراءة. كتاب قريتنا جميل فاتن.

بجوار مسجد قريتنا العتيق، الذي يحدثني أبي كل مرة عن مساهمته في بنائه وكيف أنهم جلبوا له رفقة أوائل القرية الحجارة من مكان بعيد في الجبل، بجواره ارتأى إمام قريتنا تخصيص غرفة متوسطة لتعليم القرآن، نسميها "كتاب" في لغتنا ونقول في عرفنا "رايح للجامع نقرا ."

غرفة بسيطة عليها وقار كمن دخل بيوت الأنبياء أو قصور سليمان المشيدة، بألواحنا الخشبية وأقلام ودواة، حبر نصنعه من الصوف حين تحرقه أمي فوق طاجين، الحق أني أشعر برغبة في البكاء حين أتذكر كيف اكتوت أمي بلفح الطاجين وهي تعد —السمغ–ذات مرة. تسلل صوتها إلى قلبي فقسمه نصفين "احح يدي". كل ذلك الوقار ومشاعر أخرى وسعادة لا تنتهي وذكريات لا تمحى من ذاكرتي حتى يلقى بي تحت التراب.

من المؤسف أن كل ذلك مضى وكل تلك اللحظات رحلت كما رحلت طيور الظهيرة بغير رجعة ومن الجيد أن الحياة كانت سعيدة جدا وكنت أحبها حبا عظيما.

كانت طيور الظهيرة تزورنا أحيانا قرب بيتنا القديم.

منظرها جميل جدا خصوصا عند الغدير، حينها كان الشتاء شتاء وكان الحياة طيبة جدا رغم الفقر ولا أنسى ما حييت حالتي حين أعود من رحلتي إلى غابة قريتنا، أعود مبللا وتستقبلني أمي كعادتها: "لاه تشمخ في روحك يا طفل تمرض". ولا تدري أني أستمتع بذلك متعة عظيمة، وبقيت على هذه الحال إلى اليوم أستمتع بالتجول تحت المطر وبثيابي حين تتبلل وكأن المطر رقية لي من كل هم وغم وكأنه مصدر فرح وبشرى خير يعقبها تغير جميل في حياتي.

وبقيت على هذه الحال ورحلت طيور الظهيرة إلى غير رجعة، غادرتنا إلى الأبد. ربما ذهبت إلى شعب يستحق الاستمتاع بمنظرها الجميل الآسر الأخاذ. ربما لم أعد استحق رؤية منظرها عند الغدير وربما لم أعد أستحق شيئا جميلا....

كنت متفوقا في كتاب قريتنا، خفة في الحفظ وسرعة استجابة، حتى أني مرات كنت أمسح اللوح مرتين في اليوم وألاحظ ابتسامة المعلم في كل مرة، وأبدأ التكرار عند كل نهاية حصة، وأصعد أولا إلى المنصة كل رمضان في ليلة السابع والعشرين منه. كانت أول جائزة فزت بها مجموعة من الكتب

الدينية ومصحف جميل أهديته لأخي الأكبر حينها وتلك الكتب زينت بها مكتبتنا الصغيرة في بيتنا آنذاك، مكتبة كانت أمي تحافظ أمي عليها رغم أنها لم تلج المدرسة يوما ولا تتقن كتابة اسمها حتى. تبين لي بعد ذلك أن تلك الكتب كانت من تبرعات رواد المسجد وهو ثلاثة، من باب الصدفة هم الآن خلف البحار مشتتين بين الأقطار، أمريكا، بلجيكا وفرنسا. أرجو أن ألاقيهم يوما تحت سقف مسجد قريتنا العتيق. ألف قبلة لأرواحهم الطاهرة.

وحين انتقلنا إلى المدرسة المتوسطة انقطعنا عن الكتاب لبعد المتوسطة عن البيت حيث نقضي ساعة في المشي لذلك لم نعد نزور الكتاب غير يوم الاثنين مساءا وعاهدنا أنفسنا على الحفاظ على كل ما تلقيناه، توقفت أنا عند الحزب السابع عشر. وبقي أبي يلح علي لمواصلة الحفظ لوحدي. أبي كان يريدني أن أصبح رجل دين.

مرحلة المتوسط كانت مرحلة زاهية بالنسبة لي حيث واصلت المطالعة بشكل رهيب، بل إني صرت ألتهم الكتب التهاما، قرأت تقريبا كل مكتبة مدرستنا وكتب أخرى ولم يكن يتعبني بعد المسافة عن بيتنا، إنما كان ذلك بالنسبة لي مصدر إلهام، إن الطريق إلى المدرسة كما يقول أحدهم علمتنا أكثر من المدرسة ذاتها، لكن الحق يقال: كانت الدنيا بخير. كانت حياتنا بريئة جدا، بل قل إن نظرتنا كانت بريئة جدا... الحقيقة أيها السادة

الكرام أن منعطف تفكيري كان في العام الذي أقبلت فيه على امتحان شهادة التعليم المتوسط

في الفصل الأول حصلت على معدل ممتاز وخرجت إلى العطلة الشتائية ممتطيا جوادا أبيضا، خرجت إلى العطلة متيقنا من أني فهمت منهاج هذا العام، لذلك ارتأيت الاطلاع على كتب علم الاجتماع والسياسة والاجتماع السياسي وفلسفة السياسة.

أحضر لي صديق أخي الأكبر الذي يشتغل أستاذا في الجامعة، أحضر لي كتب المسيري ومالك بن نبي والأحبابي ;وماكس فيبر وآخرين. كانت تلك عملية انتقال فكري بالنسبة لي من عالم البراءة إلى عالم التفكير البائس، عكفت في عطلة الشتاء طيلة خمسة عشر يوما على كتب سببت لي انقلابا فكريا ولا لوم عليها ولا على كتابها. ذنبي أنا البريء الذي طرق بوابة التفكير. أقف الآن في كل مرة أهتف: أيها الناس، أين سوق الغباء، أين يباع الغباء لأشتريه بأغلى الأثمان.

عدنا بعدها إلى المدرسة، عدت صامتا أحيانا وصارخا أحيانا أخرى. ذكر أستاذ الاجتماعيات آنذاك اسم مالك بن نبي فقاطعته:" –نعم انه مفكر كبير تناول العديد من القضايا وقد قرأت له منذ أيام كتاب: مشكلة الثقافة.

– لازلت صغيرا لتفهم ما يكتبه ابن نبي، على رسلك. أجابني الأستاذ.

– لكني فهمت فحوى المشكلة يا شيخ. قاطعني ومضى في درسه إلى نهاية الحصة وصار بعدها عقلي شاردا في تلك الكتب وكتب أخرى، لا أنكر أني صرت لا ألقي بالا لتلك الدروس الملقاة في المدرسة، صرت أبحث في الكتب وحدي.

تأكدت حينها أن المدرسة الجزائرية تعلمك كيف تحصل على العلامة وتنتقل من سنة إلى أخرى حتى تحصل على عمل لتعيش به، تأكدت حينها أن مدرستنا هي مدرسة ذاكرة وحفظ فقط. كنت أملك ذاكرة قوية اكتسبتها في كتاب قريتنا وأيامه الجميلة، لذلك صارت العلامة في المدرسة لا تشير لي بشيء ولا تؤثر في البتة، صارت مجرد أرقام وأيقنت أن الأمور لا تسير على ما يرام في هذا البلد. تحصلت على المرتبة الثانية في الفصل الثاني وقد تعودت من قبل على المرتبة الأولى بدون منازع.

لا أحد ماعدا أستاذة الإنجليزية وأستاذ العربية انتبه لذلك، ثقافة الاثنين واسعة جدا، كانا يعاملانني على أساس أني شخص كبير دون عقدة، لا يجد أستاذ العربية حرجا في فتح حوار معي فكري أو ثقافي أو فلسفي وأنا بدوري استمتعت بذلك. عاتبني أستاذ الاجتماعيات بالحرف الواحد: "أنت تعتمد على الكتب التي تقرأها وهذا غلط، صحح نفسك ياولدي. "

إن مدرستنا مدرسة ذاكرة ومدرسة تعتمد سياسة الحدود تماما كبلادنا العربية التي تتنازع فيما بينها حول الحدود، لا حرية في هذا الوطن، كل مقيد أيها السادة ما يختلف هو طول الحبل لا أكثر.

أتممت امتحان نهاية السنة وعدت إلى كتبي في عطلة الصيف بعد حصولي على المرتبة الثالثة، لم يفهم والداي شيئا سوى أني نجحت والسلام، وعاتبني إخوتي على عدم حلولي على المركز الأول.

اشتغلت في عطلة الصيف لبضعة أيام في ورشة بناء تشققت خلالها يداي ورفض المقاول في نهاية مدة العمل دفع الأجرة كاملة. هنا بالضبط عدت إلى كتبي كما يعود مغترب إلى وطنه. لا شيء في هذا العالم يشبه الكتاب، الكتاب لا يشبه إلا نفسه. ومنذ ذلك الوقت صرت مدمن كتب.

-ما أسمعه منك يا ياس يشوقني لأرى غرفتك في بيتكم القديم، كيف هي، كيف تترامى الكتب في أرجائها.

-وصلت ذات مرحلة إلى حد اعتبار الكتب أشخاص يشاركونني العيش تحت سقف واحد. في عتبة شهادة التعليم المتوسط انتقلت من الفتى المولع بالمطالعة إلى الفتى المثقل بهموم الكرة الأرضية بكاملها ولازلت إلى اليوم أدفع ثمن الإدراك، إدراكي أن الأمور لا تسير على ما يرام.

مشكل عويص يا إيمليانا أن تكون مدركا في عالم بائس ستحترق ذاكرتك وتجد نفسك مخيرا بين الجنون أو العزلة أو أحيانا ستجد نفسك تبحث عن الحياة الأخرى. لذلك سمعت أحدهم يقول: لا تكن مدركا في مجتمع ملوث ستفنى ويبقى الذباب، ونحن الآن سندفع كل شيء، سنفنى ويعيش الأغبياء، صدق أحد الشهداء إبان ثورة التحرير الجزائرية حين قال: "نفنى ليعيش الجبناء."

– اسمعيني جيدا يا إيمليانا: «هذا العالم يصنعه الأذكياء ليستمتع به الأغبياء، سيفنى المفكرون ليبقى العالم مليئا بالحمقى. تماما كما يفنى الصالحون ليبقى الظلمة الفاسدون أطول فترة ممكنة. هذا قانون الحياة يا إيمي، اسمعيني جيدا حين أحدثك عن منطق الحياة. هل تساءلت يوما لماذا يرحل الصالحون سريعا؟؟"

–أنت محق، يرحلون سريعا ويختفون عن الأنظار، كأنهم يقولون لنا: "لا مكان لنا بينكم في دنياكم البائسة ."

–حتى هنا يا إيمي يرحلون، أنظري أين رحل مارتن، أتعرفينه ؟؟ لقد رحل إلى هامبورغ بعد تبادلنا الحب. لقد كان جميلا جدا ألا ترين أن الصالحين لا يمكثون طويلا. اسمعيني جيدا هذا العالم لا يستمتع به لا الصالحون ولا الأذكياء

–في رأيك أين يمكنهم إيجاد ضالتهم ؟؟

–في الجنة يا سيدتي، هناك بعد الموت.

-وهل هناك حياة بعد الموت ؟؟ أين سيذهبون ؟؟ لا تقل إنك تصدق فكرة وجود حياة أخرى بعد الموت.

-نعم توجد، نحن عابرو سبيل هنا، نحن نبتلى ليعرف الله من أي الصنفين نحن ثم هناك الحساب.

-عفوا. لكني لا أصدق ما تقوله الآن، ولا يخطر على بال بشر وليس في عقيدتنا شيء من هذا القبيل.

-سأشرح لك ذات مساء كل شيء حول هذه المسألة. أعرف أنك تتساءلين كثيرا عما قلته، لكني أحب فيك التساؤل الشخص الذي يتساءل يشعرني بالفخر، الطموح لفهم فكرة ما ذاك هو الفردوس المنشود.

- نتساءل كي نصل إلى الحقيقة، أو على الأقل نصل إلى المعلومة، لا نقضي حياتنا نتخبط في غياهب الجهل، على الأقل نحاول، ثم إن الجهل ليس هو الكارثة، إنما رفض المعرفة، ما معنى الحياة إذا كنا نقضي أيامها في الأكل والنوم والجنس واللهو ! في هذه الحالة تزول الفوارق بيننا وبين الحيوان، أتساءل أحيانا: ماذا نفعل بعقولنا؟ ما الذي بإمكاننا إنجازه؟ لماذا وهب لنا الله العقل والتفكير؟؟

-تؤرقني تساؤلاتك يا ميستر ياسر. ستحولني من طالبة طب إلى باحثة في الفلسفة، سأصبح عن قريب مولعة بالفلسفة. سأنقلب كزاوية في الرياضيات. أنا أؤمن يا إيمي بفكرة أن لا غنى لنا عن التساؤل، التساؤل باب المعرفة الأول.

-9-

كان الجو ماطرا حين فتحت نافذتي، هكذا هو الطقس في هذه البلاد، واليوم يوم جمعة، وجامع الاستقلال بعيد نوعا ما عن مقر عملي، لا شيء يدل على أن اليوم يوم جمعة، ألفت هذا المشهد بعد أربعة أشهر، مدة قضيتها في المقارنة بين الجمعة في وطني والجمعة في هذه البلاد الجميلة. دعيت إلى حفلة في المساء في قاعة الأوبرا الكبرى الواقفة الشامخة شموخ التاريخ الذي تحمله، هذه المدينة أيها السادة تقطر تاريخا، كل جزء منها يروي ثلاثين رواية في كل رواية مائة فصل. اخترت ملابس جميلة لائقة بمساء كهذا. سألت إيمليانا: هل ستأتين للحفل؟؟

-بالطبع يا ميستر ياسر، من أرسل لك الدعوة؟

-وجدتها في المكتب هذا الصباح. قالت ريتا أنها وصلت عبر ايميل المكتبة.

-أنا يا ياس من أرسلها لك. كليتنا هي من سينظم الحفل، تعاون بين فرقتنا المسرحية وفرقة الأوبرا الأولى في برلين.

-كيف أشكرك، تمارسين علي كل مرة نوعا من الحب، تقدمين لي أشياء لا أعرف كيف أسميها حتى، هل أنا حقا أنا. ؟؟ أنت تدفعينني كل مرة للتساؤل ؟: من أنا؟؟

-لست متأكدة أن كنت تحب الأوبرا، فقط غامرت بدعوتك. ربما تعجبك

-سأكون حاضرا، سأؤجل زيارتي إلى هامبورغ إلى الأسبوع القادم. وربما لا يأتي الأسبوع القادم.

في المساء عند الساعة الخامسة مساءا ركبت الحافلة متجها إلى مدينة هناك في الشمال، حيث يقطن مارتن، مدينة الشمال الفاتنة، مارتن زادها جمالا. ركبت دون استئذان أحد، قرار اتخذته في آخر لحظة، حين خرجت من المكتبة ظن زملائي أني سأكون متواجدا في قاعة الأوبرا مساءا وخالفت كل البرامج. ماذا بوسع رجل مثلي قادم من وطن الزجاج فعله؟

كان عقلي مشوشا قليلا في بداية الرحلة ولم يصف حتى خرجنا من برلين بعد ساعة ونصف، اتصلت بمارتن قبل الانطلاق.

-آه، ميستر ياسر، ألف مرحبا، متشوق كثيرا لرؤيتك. عجل بالمجيء.

-سأكون عندك بعد أربع ساعات أيها الرفيق.

راعتني مناظر الطبيعة وتذكرت التلال هناك في وطني، هذا القطار محزن جدا، تنبعث من مقصورته موسيقى حزينة جدا، لا أعرف لا كاتبها ولا عازفها، كانت خافتة جدا، ولا أعرف حتى متى صدرت، ربما مستوحاة من العصور الوسطى، خلتها في البداية موسيقى تركية، لكن الصوت المرافق لها بدا لي قادما من العصور الوسطى. دققت في الأمر قليلا حتى اكتشفت أن عجوزا راكبا أمامي هو من أطلقها من هاتفه وعادة الألمان

الصمت، حتى الأحاديث في وسائل النقل لا تسمعها إلا نادرا، خلت ذلك الرجل عربيا مهاجرا لكن ملامحه لا تبدو كذلك، أشقر، أزرق العينين. اقتربت منه.

-هالو أيها العم

-هالو

صمت بعدها ولم ينبس ببنت شفة، يحمل صورا يقلبها بين يديه وبجانبه يضع هاتفه مستمعا للموسيقى، تأملت قليلا صوره وانصرفت خوفا من إحراجه، تبا من فضولي ساذج وإلا فما دهاني لسلوك كهذا. وحين عدت إلى مكاني جلست أحلل تلك الصور: هل هي لرفاقه؟؟ هل هي لأبنائه ؟؟ أعترف والاعتراف سيد الأدلة أني أخطأت في حقه المسكين، أحسست نفسي سيئا جدا لأول مرة.

وبعد دقائق اقترب مني والدموع تنهمر على خديه: "لماذا الروس سيئون لهذه الدرجة؟؟ أين عيسى ورحمانوف وسليم؟ لماذا قتلوهم؟"

حينها أدركت أنهم أبناؤه اغتالهم الروس إبان الحرب الروسية الشيشانية. ويلكم أيها الروس، ماذا فعلتم بشعب مسالم لطيف، ماذا فعلتم بشعب يشبه أرضه مثل البناء الفذ الذي يشبه من بنى.

ضممته إلي وحاولت التخفيف عنه من وقع مصيبته هذه مصيبة ذاكرته التي ترفض النسيان، عندما يتعلق الأمر بالأبناء

تسقط إمبراطورية النسيان. عاد بعدها إلى مكانه هادئا قليلا واقترب القطار من المحطة الأخيرة. هامبورغ الجميلة.

تلاقيني الصدف كل مرة بالمضطهدين اللاجئين إلى هذه البلاد، بعضهم من الأقليات وبعضهم هاربون من بطش الديكتاتوريات وأمثالي الهاربون من بطش العالم الثالث. أجدهم يشبهونني كثيرا ولاقيت أيضا موسيقاهم الرهيبة الآسرة، هل سمعتم من قبل موسيقى الأكراد والشيشان والأمازيغ والأرمن إنها ترحل بك إلى زمان الجلنار إلى زمان الهدوء قرب الجبال. المضطهدون هم نشيد الجمال المفقود.

استقبلتني ثلوج في هامبورغ، آه أيها الشمال البارد كيف حال أهلك الطيبين، كيف قلوب أحبتنا هناك. وجدت مارتن وزوجته في انتظاري في محطة القطار.

-هالو أيها الرفيق الجميل. ناداني مارتن.

-هالو للجميل المختلف.

-أتراني كذلك؟

-أجل يا ميستر ياسر، أنت مختلف للغاية. الحق أني لم ألاقي مثلك من قبل خصوصا وأنك عربي. عربي بهذه الخصائص. شيء مذهل.

-أنت تخجلني يا مارتن.

ثم ألقيت التحية على زوجته مع علمي أنه لم يكن متزوجا من قبل. هل هي صديقته؟ أم زوجته؟

-أقدم لك خطيبتي ايلينا وهي زميلتي في العمل هنا.

-هنيئا لك ولكما. أنت تستحق كل جميل.

سرنا إلى البيت وارتأيت اقتناء شيئا لهما فنحن العرب لا ندخل البيوت بأيد خاوية. لكنه ساقني ومنعني من ذلك.

-أنت ضيفنا يا ياسر ومقامك عندنا.

-لقد ساقتني الأقدار إليك هذا المساء، دعيت إلى حفل في قاعة الأوبرا في برلين وفي آخر المطاف قررت زيارتك.

-اه ذلك المبنى العظيم الضارب بجذوره في التاريخ.

-ساقتني الأقدار إليك أيها الرفيق والله يعلم كم اشتقت لك.

-وأنا أيضا، رغبت في زيارتك عدة مرات لكن كما تعلم أخي لازال مريضا وأنا ملزم برعايته.

-شفاه الله، شفاه الله.

-ماذا عنك، ألن تتزوج يا رجل. ألم تعجب بعد بفتاة هنا.

-ليس بعد. لا أعرف لحد الساعة غير فتاة واحدة.

-تلك التي زارتك للمكتبة ؟

-أجل، هي إيميليانا، نتواصل كثيرا مؤخرا، وهي من دعاني إلى حفل الأوبرا.

-اه، نعم، نشيطة جدا ومتفائلة، كانت دائمة التردد على مكتبة آنا ريختر.

-ستجد من تعجبك لا محالة. نطقت ايلينا.

-أنا أؤمن أن كل شيء بقدر يا سيدتي

هكذا قضينا ليلتنا نتحدث في الحياة والحب والقراءة، عرفت مارتن بمناسبة القراءة حين كنت في وضع غير قانوني (حراق) ولازلنا نتجاذب أطراف الحديث حول القراءة. لهذا أنا دائما أقول: "القراءة حياة"

والتقينا في الغد في مقهى وألقيت محاضرة حول تاريخ شمال إفريقيا، كيف أتى الفينيقيون ،الأمازيغ، كيف أتى الرومان والوندال والعرب، وقفلت صباح الأحد راجعا إلى بيتي بعد توديع مارتن وخطيبته. كيف هي برلين يا ترى؟ كيف سأقابل من انتظروني لأحضر حفل الأوبرا؟

وأنا عائد في الطريق استمتعت وأمتعت ناظري ببحيرة alsterالفاتنة، كيف امتصت كل التلوث في هامبورغ وما جاورها من مدن، كيف ميزك الله أيها الشمال عن غيرك، لذلك كان جدي يقول كل مرة: اتجهوا نحو الشمال ما استطعتم. هامبورغ فاتنة الشمال الأوربي، وأنا كلما اقتربت من الشمال فتنت أكثر. لله درك يا مارتن كم أغبطك. بعدما شاهدت هامبورغ أسرتني أسرا أيها السادة. ما هذا السحر الذي يملكه الشمال. المهم أني لم أفرط في قهوة هناك، تذوقت ثلاثة في ثلاث مقاهي في المدينة ثم قلت لهم إلى اللقاء.

لم أقدر على النهوض صباح الأحد إلا بشق الأنفس، لم أسافر خارج برلين منذ مدة وأصابني زكام للمرة الأولى منذ

قدومي إلى هنا، حتى في الليالي الحالكات التي بت فيها على قارعة الطريق لم يصبني.

-اه ميستر ياسر مرحبا، لقد جاءت سيدة البارحة تسأل عنك، قالت أنها اتصلت بك عبر الهاتف دون جدوى.

-اه إيمليانا؟؟

-لا أعرف اسمها، هي من مرتادي مكتبتنا.

-هي بالذات، لقد كنت في الطريق إلى هنا و لم أجد حلا لبطارية هاتفي اللعينة، تخونني في كل مرة.

اتصلت بها حتى أقدم اعتذاري ولم ترد حتى جاءت بعد الظهيرة.

-مرحبا ايمي، اعتذاراتي لك عن عدم حضوري، لم أقدر على تأجيل رحلة هامبورغ إلى مارتن. لقد تذكرت أني وعدته ولا مجال لإخلاف الوعد.

-عذرك معك، لكننا تمنينا حضورك صراحة. من المبهج جدا أن نراك معنا.

-وأنا كل امتنان لكم ولا أشعر معكم بالغربة إطلاقا. سأكون حاضرا في قادم الأيام في نشاطاتكم.

-وهل سجلت بالجامعة ؟؟

-ليس بعد سأراسل أحد أصدقائي كي يرسل لي بعض الوثائق من هناك من البلد وسأكون مسجلا في سبتمبر بإذن الخالق.

-ذاك سيمكنك من الانضمام إلى فرقة المسرح وفرق أخرى. سنستمتع بحيويتك ونشاطك.

-مؤكد يا ايمي. مؤكد

-على فكرة، أنت مدعو لجلسة هذا المساء في مقهى engelchen.قال لي ألبرت أنه مقهى رائع.

-سأكون حاضرة يا ميستر ياسر، وسأحضر معي ريتا وألبرت.

-مشرف لي جدا.

-مرحبا بكم أيها الأصدقاء، أنا السيد ياسر صديقكم الجزائري، يسعدني دعوتكم إلى هذا المقهى، البلاد بلادكم والمدينة مدينتكم والمقهى لنا جميعا.

-نحن غرباء يا ميستر ياسر. نطقت ريتا.

- لم تخبريني يا إيمي

-هي من أصول بولندية قدمت أسرتها بعد الحرب.

-إلا أنا. نطق ألبرت

-أنت ألبرت أينشتاين هههههه.

بعد قهقهة قصيرة بيننا نطق ألبرت.

قص علينا شيئا يا ميستر ياسر.

-ماذا أقص أيها السادة، مجرد غريب بينكم ومجرد موظف في مكتبة.

-وأنا مجرد أستاذ في ثانوية براديينبرغ. رد ألبرت.

سكتت ايميليانا برهة، طأطأت رأسها ثم رفعته:

-أنت تملك كنوز الكلام يا ياس، كنوز الكلام كلها. مثلك يأسر أسرا.

-ماذا أقص؟ بالأمس فقط كنت طالبا في الثانوي، مبتهجا بالحياة مقدم على المغامرات، مقبلا على القراءة بشغف، سمتني حينها أستاذة العربية: الفتى الشغوف.

كنت أرسم أحلاما جميلة في مخيلتي، كان الخيال يسكنني والشغف يصاحبني والتفاؤل يملأ قلبي وأريد التركيز على نقطة مهمة جدا أيها السادة: كنت أحب الحياة حبا عظيما.

-ألا تحبها الآن يا ياس؟ تساءلت إيمي

-الآن أحبها إذا ما استطعت إليها سبيلا، أحبها حين أتخلص من الإدراك الموحش للأشياء، ما من مصيبة في هذا العالم سوى أن تكون مدركا لما يجري.

-لقد تركنا أوطاننا الأصلية وقدمنا إلى هذه البلاد الطيبة التي لا أحس فيها بالألم البتة... أوضحت ريتا.

-نغادر الأوطان والأوطان لا تغادرنا، أوطاننا يا ريتا تسكن شغاف القلب. نسافر كي نترك أحزاننا خلفنا لكنها تلاحقنا لتحضر في ذاكرتنا في اللحظات التي لا نريدها. هل تعلمين أنه أحيانا تسترجع ذاكرتك حزنا يفسد كل أحلامك البهية التي رسمتها وكل كفاحك المرير الذي قاسيته في رحلتك إلى بلاد أخرى؟

-أكمل يا ميستر ياسر ما بدأته.

كنت مبتهجا بالحياة محبوبا لدى أغلبية أساتذتي، ولدى زملائي، كنت مثل بالنسبة لهم الطالب الموهوب الذي لا يعجزه أحد، المحيط بجميع المواد، صاحب الرصيد المعرفي المتميز.

كانت بدايتي كفتى تائه في سماء جديدة، عدت من عطلة الصيف مثقلا بتلك الكتب التي قرأتها وهنا بدأت أميل إلى فهم الأشياء ولم يعد يستهويني الحفظ البتة، صارت كلمة حفظ في مخيلتي تشير فقط إلى القرآن. بدا لي العالم كله منزلا مبنيا على أسس الفهم، ماذا وكيف ولماذا وما السبيل؟

وبين أساتذتي وجدت ضالتي عند أساتذة الفرنسية والإنجليزية، أما أساتذة المواد العلمية فكانوا يبدون لي كالآلات، كان شيء ما ينقصهم، كانت أرواحهم تفتقد لشيء ثمين، كانت تفتقد للروح هي أيضا، الآداب روح الحياة وصوت الإنسانية الثائر، بحثت في نفسياتهم فلم أجد هذه الروح، أساتذة اللغات الأجنبية الذين درسوني كانوا عظماء جدا، قالت لي أستاذة الإنجليزية في السنة الثانية ثانوي: "لو يهبني الله ولدا سأسميه باسمك"، تماما كما فعلت أستاذة اللغة ذاتها في المتوسط. إنهم وجدوا فيا أشياء كثيرة مشتركة معهم، وبالمقابل لا أجد مع أولئك الذي لا تستهويهم الآداب أي خاصية مشتركة، لا أجد فيهم أي طاولة تجمعني بهم، لا أتصور نفسي البتة مجالستهم على طاولة واحدة، هم تماما كأولئك الشباب الذين يجدون ثروة

آبائهم يتبجحون بها ويتحدثون عنها في المجالس كأنها من انجازاتهم، إني لا أجد أي شيء يجمعني بهم.

اضطررت في كثير من الأحيان أيام الثانوي إلى العمل في نهاية الأسبوع في ورشات البناء وأحيانا كنت أغيب ليوم أو يومين في الأسبوع للسبب ذاته، كان الفقر مؤثرا جدا في عائلتنا، لو كان الفقر رجلا لقتلته-يقول علي .-

-لماذا تتعب نفسك يا ياسر. أنت تهلك صحتك. تقول أمي في كل مرة. مع أني أقرأ كل مرة في عينيها عبارة: "ليساعدك الله، ستخفف عنا بعض المصاريف ."

-إنهم لا يدفعون لك أجرتك هؤلاء المقاولون فاحذر. يقول أبي. كان متعبا جدا آنذاك من قسوة الحياة.

وأنا في الحقيقة كنت حاملا همهم أكثر منهم ربما، الشيء الذي كان يعكر مزاجي آنذاك فقر أسرتي وسياسة هذا البلد اللعينة. قال لهم بومدين ذات يوم:" جوع كلبك يتبعك"

كيف سأقنع أبنائي يوما ما أن بومدين أنهك هذا الوطن بل كيف سأقنع القوميين البعثيين الذين يتشدقون في كل مرة بالعروبة والقومية والاشتراكية. طبعا لا سبيل لذلك، لكن بالنسبة لأبنائي أنا متأكد من أني سأقنعهم، طبعا إذا اكتسبوا ملكة الفهم لا ملكة الحفظ والتلقين.

-هل كنت طالبا نجيبا أم كسولا؟ تساءل ألبرت.

-كنت متفوقا ذا كبرياء، وجدت ضالتي حين سمح لنا أستاذ الاجتماعيات في السنة الثانية ثانوي بالاستعانة بالكراس والكتاب أثناء الامتحان، حصلت عنده على أكبر العلامات وكل أقراني لم يصلوا إلى المعدل حتى، أنا مدين له باكتساب ملكة الفهم، قال لنا ذات صباح: "لا تحفظوا يا أعزائي فالحفظ يذهب مع الريح، بل افهموا أن الله طلب من أنبيائه الفهم والإفهام."

عندما سمعت عبارة "يذهب مع الريح " قلت له بعفوية: "ذهب مع الريح"

رد علي: "أعلم أنك تذكرت رواية "ذهب مع الريح" لمارغريت ميتشل. كان ذلك الأستاذ مثقفا جدا وجدت ضالتي معه في النقاشات التاريخية، ذهب في نهاية العام دون توديعنا.

كان عنواني في الدراسة هي الحلول في المقام الأول في القسم، هل أصدقكم يا سادة؟ لم أكن أراجع دروسي في المنزل. أكتفي فقط بما أتلقاه في القسم.

-لا بد أنك كنت ذكيا جدا. تقول ريتا

-ولا يزال كذلك. قالت إيمي وهي تشير بيدها كما يشير أستاذ محاضر إلى نقطة ما.

ألا ترين كيف اندمج معنا بسرعة وكيف يؤدي دوره في المكتبة. انظري إلى غزارة فكره. أجزم أنه يعرف تاريخ أوطاننا أفضل منا.

-ليس إلى ذلك الحد يا إيمي. أنا فقط أحاول اكتشاف المصباح الصغير الموجود بداخلي، لكل منا مصباح أيها السادة، لكن يجب أن نكلف أنفسنا عناء البحث.

-أشار ألبرت إلى مصباح المقهى: "وصاحب المقهى حين أضاء هذا المصباح جمعنا هنا في جلسة أحببتها جدا، لا بد لي من الانضمام إلى فرقتكم هذه، أحببت حديثكم جدا، لا يوجد مكان في العالم أفضل من هذه المقاهي التي تجمعكم، ما أجملكم وما أجملني معكم ."

-ممتن لكم جميعا، تشير الساعة الآن إلى السابعة مساءا، لابد المغادرة فغدا يوم عمل.

-هل سنلتقي مجددا هنا؟ تساءل ألبرت.

-بالطبع. أجابته إيميليانا وعلامة الثقة بادية على وجهها.

أنا أيضا متأكد من الأمر. ممتع جدا تحول المقاهي إلى حياة تجمعنا، إنه التحول العظيم الذي يجعلنا ننتمي قليلا إلى إنسانيتنا، هل يمكن تخيل حياة يتحول فيها الإنسان إلى كائن آخر، صحيح أنها الحقيقة الآن، لكن هل بوسعنا الوقوف مكتوفي الأيدي كمن يتفرج على التلفاز. لنبذل جهدا قليلا كي نخرج من هذا المأزق، من هذا الكمين الذي أوقعتنا فيه الحياة. جدوا لنا طريقة نخرج بها من ورطة الحياة.

-10-

كان اليوم يوم يوم سبت والشهر شهر أفريل ونسميه نحن العرب نيسان والجو ممطر، هل هناك ما هو أجمل من مطر نيسان ؟؟؟

يبدأ الشتاء هنا في هذه المدينة في الانكسار، في نيسان يكسر المطر كبرياء الشتاء، تغادر الثلوج المدينة وتهرب نحو الشمال، نعم حتى الثلوج تهرب إلى الشمال، كل شيء في هذا العالم يجد ضالته في الشمال وتشرق الشمس الدافئة التي تشكل مع المطر سمفونية الهدوء، الهدوء الآسر الأخاذ وتعزف حدائق برلين أغاني الحياة والحب والوجود.

قصدت باب جامعة برلين الحرة لأستفسر عن إجراءات التسجيل والوثائق اللازمة، بالنسبة لنظام الدراسة حدثني أصدقائي عنه، لا يشكل الأمر بالنسبة لي أي عائق، لقد تعلمت جزءا لا بأس به من لغة غوته، سأسجل في شعبة الأدب الألماني، شعبة صعبة المراس لكني سأقاوم، سأقاوم كما قاوم أجدادي الصحراء.

كان الاستقبال حارا عند مدخل الجامعة خصوصا حين لحقت بي إيميليانا على عجل فقد كنت أظنها أنها لن تأتي.

-آه ياس، جئت دون أن تخبرني البارحة.

-عفوا، لم أخطط للمجيء، وفي الصباح قلت ربما أحرجك وقد تكونين في رحلة ما.

-لا حرج في خدمتك أيها الإفريقي الشمالي.

-أنا جزائري مقيم هنا في برلين ولدي بطاقة إقامة لـ 03 سنوات، وأريد التسجيل هنا في الجامعة. كيف هي الإجراءات من فضلكم.

-أهلا وسهلا بك، تسعدنا خدمتك. أجابت الموظفة. ثم قدمت لي كتيبا يحتوي على كافة المعلومات ومعه معلومات الاتصال والاستعلام.

تصفحته على عجالة، ثم خبأته للمساء.

وحين وصلنا إلى نادي الجامعة اتخذنا لنفسنا مكانا هناك قصيا، وفتحت الكتيب

-يبدو أن هناك شروطا كثيرة.

تناقشت مع إيمي حول المعلومات التي احتواها، وخلصت إلى نتيجة مفادها: يجب العودة إلى الجزائر حتى أجهز كل الأوراق.

-لو راسلت عائلتك أو أصدقاءك دون تكلف عناء التنقل.

-عفوا إيمي، البيروقراطية في بلدي تعيق ذلك، هناك وثائق شخصية لا يمكن لأحد غير المعني استلامها حتى بوكالة للأسف.

-وما الحل؟

-أعود في أغسطس آب، وهو شهر عطلتي السنوية.

أفريل يحبنا ونحن نحبه من كل الأعماق، إنه يمنحنا فرصة تذوق الأمل من جديد، أراه يحيي فينا آمالا وآمالا، يمزج بين طمأنينة الربيع ومطر الشتاء الذي يهطل رحيما في أفريل وانشراح صدورنا وعودة الحياة إلى الحياة.

لم أكن أريد العودة إطلاقا إلى البلد، أو على الأقل كنت أريد البقاء إلى العام الذي بعده، لكن يجب الالتحاق بالجامعة، لا يمكن البتة أن، أبقى هكذا بين المكتبة والمنزل والمقاهي، هي عيشة سعيدة بالنسبة لي، أو على الأقل بالنسبة لمواطن جاء من بلد في العالم الثالث. هي حياة سعيدة هنيئة بالنسبة لمواطن جاء هاربا من الجنوب نحو الشمال، بالنسبة لمواطن يحاضر في المقاهي ويحبه أصدقاؤه هنا ولا أحد منهم عربي. لكن بالمقابل هي حياة صارت تبدو ناقصة بالنسبة لي ربما هو التعود على الشيء، لطالما تساءلت لماذا يئس ستيف جوبز وبيل غيتس من الحياة، سمعت ملياردیرا كبيرا يقول ذات مرة: "لقد صار كل شيء عاديا بالنسبة لي وهذا سر يأسي من الحياة ."

عندما يصبح الوضع عاديا بالنسبة لك أو عندما تعتاد شيئا ماديا تصبح الحياة مملة جدا، فالغني الذي يعتاد المال والسيارات والمصانع يصبح كل ذلك عاديا بالنسبة له لذلك تجده يبحث له عن ملاذ آخر، رجل الأعمال الذي ينغمس في عالم النساء وعالم القتل إنما يبحث عن الروحانيات فقد سئم من الماديات،

عندما تجد ملياردیرا قتل نفسه فهذا يعني أنه فعل ذلك بحثا عن حياة أخرى أو عن نهاية لعالمه المادي المغرق.

عندما تعتاد شيئا ماديا فإن نفسك تطمح للتغيير كثيرا وتدفعك أحيانا إلى فعل أشياء لم تكن مقتنعا بها من قبل، بل إن الفراغ الروحي يدفعك لولوج عوالم كانت تبدو لك منذ زمن مصنفة في باب المستحيلات، أنت تفعلها يا صديقي رغبة في التعويض ثم تجد نفسك قد فشلت.

صحيح أن المال يصنع السعادة لكنك ستعود يوما ما باحثا عن نفسك وقد لا تجدها، وهكذا هم البشر يهرولون نحو المال حتى إذا حققوه وصار يمثل لهم شيئا عاديا عادوا يبحثون عن أنفسهم، عن الروحانيات عن المشاعر عن طعم الحياة في أشياء بسيطة.

أنا مقتنع تماما بأن حضن الأم ولطف الزوجة الصالحة وجلوسك بعفوية مع أصدقائك وصلاتك التي تحافظ عليها وقرآنك الذي لا تنساه، أنا مقتنع كل الاقتناع أن هذه الأشياء تصنع السعادة وأنها لا تمل البتة، هل سمعت يوما شخصا مل ضحكة أبيه؟؟

-11-

كان الصيف معتدلا وقد لاحظت ذلك بعد أن ذقت برد الشتاءات، اليونان و مقدونيا وصربيا والبوسنةو كوسوفو ومونتينيغرو ومدن كثيرة، لأول مرة منذ ثلاث سنوات يطل علي صيف معتدل بعد نصف شتاء جميل، قضيت نصف شتاء هذا العام في الرصيف، جاء جوان وجاءت جويلية واقترب أوت.

جهزت نفسي وأمضيت على محضر الاستفادة من العطلة السنوية، اشتريت هدايا لعائلتي، لأمي لباسا جميلا، لإخوتي لكل واحد منهم شيئا، لهذا حذاء ولذاك معطفا، ولأصدقائي هدايا أخرى، ساعات ألمانية و تذكارات أخرى، فأول شيء تسأل عنه حين تعود إلى الوطن هو الهدايا، الهدايا قبل كل شيء، ما عدا الأم التي تسأل عن حالك وعن صحتك.

لم أكلمهم لمدة فاقت الشهرين فأخي أمين كان متذمرا مني أيما تذمر، لا أعلم لماذا وما السبب لكنه كان في كل مرة يقول لأمي: "دعيه وشأنه إنه لا يحس بنا. "ولم أستطع إلى هاته اللحظة معرفة لماذا كان يقول ذلك الكلام في كل مرة، ربما لأنه دقيق جدا وأنا مهمل جدا، ربما أنا لا أصلح للحياة الأسرية أو لا أصلح للعلاقات مع الناس لكن المؤكد أنه كان يتمنى شيئا ما، كان يتمنى إيجاد شيئا مني، ربما كان علي الاهتمام بحال عائلتي أكثر من نفسي وهذه بالذات نقطة صراع أزلي بين النفس والعالم. أعلم أن تحقيق الهدف يجعلني أهتم بعائلتي أكثر

لكنه لا يرى الحياة إلا أمام قدميه، ربما هو يريد حلا عاجلا لكني نشأت على العلم والعلم يعلمك كيف تتريث وتبني حياتك شيئا فشيئا.

عدت ذات سبت، ذات أوت، ذات صباح، تشير الساعة إلى الرابعة صباحا، كانت تلك الرحلة الأولى في اليوم، ثلاث ساعات ونصف حطت الطائرة بمطار هواري بومدين، إننا لا نحبك أيها الهواري ولا نحبك مطارك هذا حين ننزل به.

اعتقدت أن صديقي أحمد فقط من سأجده في قاعة الانتظار، لكنني فوجئت بجمع كبير من أصدقائي ومعهم أخي الأوسط إبراهيم. وقفوا مبتسمين كمن ينتظر القادة حين يعودون إلى الديار مظفرين.

سارعوا لاحتضاني وسعدت سعادة عظيمة ينقصها شيء ما إنها أمي.

-نحن هنا منذ الساعة الواحدة في قاعة الانتظار. قال أحمد.

-الجزائر كلها قاعة انتظار يا جماعة، لقد أمضيت هنا خمسة وعشرين سنة في الانتظار، بل إننا منذ 1962 في قاعة الانتظار، ومن يدري هل سنذهب بعدها للجحيم أم إلى الجنة.

أخذنا صورة للتذكار وانطلقنا خارج المطار بعد تلك الإجراءات المعقدة لدى البوليس والجمارك.

حين وصلت إلى مكتب الشرطة وسلمت له وثائقي.

-جواز سفرك صادر عن سفارتنا في ألمانيا، أنت في رفاهية تامة. وكيف ذهبت؟ وماذا تشتغل هناك؟ وأين تعيش؟ وماذا تملك هناك؟؟ وأسئلة أخرى تثير في الإنسان الرغبة في ارتكاب جريمة القتل.

-لا تسألني عن حياتي الخاصة رجاء.

-ما بك أيها الشاب، أنت تغضب بسرعة، هذا عملنا.

-عملك لا يسمح لك بمساءلة شخصية كهذه، احذر.

بدأ يتمتم بكلام لم افهمه حين قال له زميله: "دعك منه هذا الزمر ."

-لست "زمر" يا هذا احترمنا.

ومررت بشق الأنفس حتى مكتب الجمارك.

-"امممم زجاجات عطر ألماني خالص". جمركي حين فتح متاعي.

يمنع منعا باتا جلب قارورات العطر يا رجل.

-إنها هدايا لأمي يا أخي، أرجوك

-قلت لك ممنوع وسنحجزها الآن.

-أترجاك يا أخي، إنها لأمي.

-لا تناقشني، إنه القانون.

ثم وضعها جانبا وأمرني بالمرور.

-هاااي، كيف أمر، أين محضر الحجز، القانون ينص على أن الحجز يتم بمحضر.

سكت قليلا، التفت إلى زميله: "هات، هات محضر"

تم تحرير المحضر، استلمته ومررت إلى بهو المطار حيث قاعة الاستقبال وعلامات الأسى على وجهي: ألا قيمة للأم عند هذا النظام؟؟

لماذا يا ترى صرنا بهذا الشكل، بل لماذا صاروا يفترسون كل شيء، أمور لم تحدث لي حتى في أعقد مطارات أوربا، استفزازات بالجملة، مضايقات..... هذه بلاد العجائب.

آلمتني فكرة أنهم لم يسمحوا لي بتمرير زجاجة عطر واحدة لأمي، للأسف لا قيمة للأم عند هذا النظام.

خرجنا من المطار وتأملت في الأجواء فإذا هي حزينة كئيبة زادها دخان وملوثات المصانع كآبة لا تطاق، والهواء خانق جدا، ربما لأني تعودت على الهواء الصافي هناك في بلاد الماكينات، أردت التعبير عن سخطي للأمر لكنني خفت أن يفهم الأمر لدى أصدقائي على أنه تكبر فأسررته في نفسي.

خرجنا من العاصمة متوجهين نحو الشرق ودب في نفسي نشيد الأهل والخلان وتراب قريتنا الزكي

يا إلهي، ما هذه الكآبة التي تغشى البلد، أحسست بضيق في التنفس وأحسست بالغربة ونحن متوجهين نحو الشرق، لا أنكر أن خروجنا من العاصمة أعطاني القليل من الراحة، القليل فقط وخفت أن يجذبني هدوء قريتنا إليه فأعجز عن المغادرة، رغم أني لا أحب مصطلح المغادرة البتة، وقد استعملته مرة

واحدة حين عزمت على مغادرة البلد ذات شتاء. أنا في الحقيقة أحب تراب قريتنا والحقيقة الأخرى أني طموح جدا، طموح حتى التعب. وهكذا تتصارع قريتنا مع الطموح ولا أدري من سيفوز في نهاية المطاف.

صادفتنا الكثير من الحواجز الأمنية في الطريق مع علمي بأن العشرية السوداء قد ولت وأن الأمن قد استتب في البلد، ما هذا بحق الله. وصار منظر تجمع أفراد الأمن يشكل مصدر هلع لي مصدر خوف وكلما رأيتهم تذكرت ذكرى سيئة حدثت لبيتنا إبان العشرية السوداء، عشرية الدم والخراب، تلك الحادثة لا تنسى في تاريخ اسرتنا، حيث..... عفوا دعونا منها.

والحرارة الشديدة تلفح الأبدان، وأحاديث الأصدقاء تؤنس وحشتي وأرواحهم المرحة تبعث في الأمل في شيء ما.

لقد تغيرت الكثير من الأشياء في البلد، ليس إلى الأحسن طبعا، إنما صار كل شيء فوضويا، عدد البنايات، عدد السيارات، عدد المصانع، كمية التلوث وكل شيء فوضوي آخر.

حتى قريتنا التي كانت هادئة، لم تعد كذلك على ما أظن، فازدياد عدد المركبات وقدوم سكان جدد اليها بدأ يفقدها ذلك الطعم الساحر.

وجدت امرأة واقفة في ساحة البيت هرولت إلي تصيح كطفلة.

-ولدي، ولدي، ولدي، ودموعها تنهمر. عانقتني.

-لقد خشينا عليك يا ولدي، الحمد لله أنك بخير.

عانقتها وقبلتها على الرأس وعلى يدها المباركة، نزلت دمعتان من مقلتي فكبحتهما ونطق لساني بعفوية: "من يركب البحر لا يخشى من الغرق."

وعانقني إخوتي وأنزلوا متاعي من السيارة.

إلا الأخ الأكبر لم يعد من العمل بعد

إلى مائدة في الفناء، مزينة بفطائر معسلة وحلويات تقليدية أعددتها أمي القصيرة، والقصيرات هن الجميلات.

تناولت حقيبتي مباشرة بعدها ووزعت عليهم الهدايا كل واحد وما توقعت المطالبة. غابت العطور وحضرت أشياء أخرى.

لبست أمي ذلك الشال، إنه من صناعة بوسنية خالصة، نظرت إلى أخي الأصغر.

-هل أبدو جميلة؟

-نعم يا أمي. أجاب ببراءة.

-بل الشال هو الذي تجمل بك يا أمي. أردفت أنا.

ضحك الحاضرون معتقدين أني كنت أجاملها ولا يدرون أني أقدس الأمهات إلى ما لانهاية..

ومن فرط تعبي غفوت على سرير في فناء بيتنا، وللحظة أحسست أني أنام بعد ثلاث سنوات. استيقظت باحثا عن نفسي كأنما اختطفني الجن الى السماء الدنيا. كل شيء غريب

هنا، كل شيء غير مألوف، استيقظت على صراع بيني وبين ذاكرتي

أين أنا؟ من أنا؟ جلست لربع ساعة اسأل نفسي الأسئلة ذاتها مستغربا من وجودي هنا. ما هذه الأرض؟ ماذا يحدث؟ أردت سؤال أخي الأصغر الذي بجانبي لكنني استحيت حتى ابتسم في وجهي.

-ياسر أخي لقد تغيرت كثيرا

-تغيرت؟

كيف ذلك

-لقد صرت جميلا جدا

-هههههه أولم أكن جميلا من قبل، تبا لك

-ههه. بلى أقصد لقد صرت جميلا كالأوربيين

هنا حضر أخي أحمد

-هو محق، لقد صرت تشبع لاعبي الألمان، ألم تلاحظ بشرتك كيف صارت بيضاء ناصعة يرتاح لها الناظرون

-وشعره صار لطيفا جدا.. أردف الأخ الأصغر

-منذ جاء إلى الحياة وهو جميل.. أمي بعد ضحكة عريضة كشفت فيها عن نابها الفضي الذي يميزها.

وحين عاد الأخ الأكبر في المساء قمت له احتراما وقبلته، فهو بمثابة الأب وله كل الوقار رغم عصبيته وعنجهيته، لكنها

عصبية الأب التي نحبها فيه. أبي أيضا كان عصبيا جدا، عصبيا حد الجمال.

وتسامرنا تلك الليلة حتى الساعة الثانية صباحا، طلبوا مني قص رحلتي وكيف كانت، سردت لهم القصة وأدخلت عليها الكثير من الماكياج، ليس سوء خلق مني ولكن ما رغبت عيش معاناتي مرة أخرى. أنت لا تعرف ما معنى أن تخبر أمك أنك دخلت سجون أثينا

وركزت في قصتي على وصف الناس والأماكن كأنما شريط وثائقي يعرض تاريخ وحضارة مدائن شامخة وفعلا مررت بمدائن شامخة شموخ السماء، شموخ أرواح شهداء وطني.

واستيقظت فجر الغد وقت الصلاة، فقد تعودت على النظام في بلد النظام لدرجة أن أمي استغربت الأمر.

-أنت لم تنم كثيرا، لماذا نهضت الآن ؟

- لم أقدر يا أمي لقد تعودت على النهوض باكرا

-اليوم سوق الأحد. هل اشتقت له؟

-هههه قليلا يا أمي. طبعا أخفيت عنها حقيقة أنه يمثل بالنسبة لي ذكرى سيئة رغم أنه يحمل في ثناياه بساطته الآسرة. عشت في ذلك السوق أيام الثانوي أبيع الحلوى والفطائر أساعد بها نفسي وعائلتي. كلما تتذكر أمي ذلك تنهمر دموعها وما أغلى دموعكن أيتها الأمهات. من الصعب التضحية في سن كذاك لأجل زرع فرح بقلب عائلتك. لم أكن فتى مهتما

بالبريستيج والاناقة ومصففات الشعر والعطور. كل ما كان يهمني هو حال عائلتي.

أخذت المصحف واتخذت مكانا قصيا، رفضت الذهاب إلى المسجد حتى أتجنب أسئلة الفضوليين المحرجة التي تحيي في عصبية أبي.

ومكثت في البيت حتى جاء الأصدقاء في المساء بسيارتهم جو مبهج لا شك..

وقادوني إلى جبل هناك خلف قريتنا الصغيرة وأنا الذي عادة ما أستمع هناك في برلين إلى فيروز حين تقول: "يا جبل لي بعيد خلفك حبايبنا ."

جبل قضينا مرحلة الابتدائي كلها نتسلقه نتزحلق فيه نمثل فيه أحيانا أدوارا تاريخية كالكواسر والجوارح ونقطف منه ثمار الخريف. وبالقرب منه ملعب كرة القدم الذي تحيط به الأشجار من كل جهة. ما أجملها من بلاد لولا النظام البائس الذي نصبته فرنسا خلفها.

ولم يكن الوقت ليكفي، فالأمسية قصيرة جدا ولا يسعنا المقام إلا استنشاق هواء عليل ممزوج بنسيم الجبل وضحكات أصدقائنا وهم يقصون خيباتهم التي تتوالى في هذه البلاد. عرفت أنهم تعودوا على الخيبات حتى صارت تمثل بالنسبة لهم سكاتشات للضحك والاستهتار. لقد تعودت أنا على الخيبات مثلهم لكني اتخذت منعرجا آخر حين حملت حقائبي للسفر.

مرحلة أن تصبح الخيبات كالسكاتشات لم أشأ البتة الوصول إليها أو أن تقبض علي.

ضحكت معهم قليلا لكني لم اضحك عن قناعة، أضحك وفي قلبي ألف أسى لحالتهم وفي قلبي ألف دعاء لهم بالفرج القريب.

عندما تصبح الخيبات تثير فيك الضحك كالسكاتشات فاحزم حقائبك لعلك تجد الطريق أو لعلك تلحق بقطار تمهل عند محطة ما عساه يحملك معه.

قصصت لهم بعضا من يومياتي في المهجر وقبل ذلك عن طريق اليونان وصربيا والبوسنة. أبدى بعضهم إعجابا بالمغامرة وبعضهم عبر عن صعوبة المهمة ودور القدر فيها والحقيقة هي أني وصلت إلى هناك بقدر والله خلق كل شيء بقدر.

وجدت أمي في انتظاري في المساء وقد أعدت طبق الشخشوخة التقليدي الذي تعرف أني أحبه منذ الصغر ولم أتذوقه منذ زمن بعيد وطلبت مني دعوة الأصدقاء أيضا كي نجتمع حول مثرد واحد للبركة كما يقال. احتفى بيتنا في هذا المساء بي كضيف عزيز وأنا عن نفسي أحسست نفسي ضيفا ثم اجتمعنا حول شاي وحلويات في الليل، قصصت لهم حكايات أخرى. لقد صرت منذ قدومي قاصا بارعا ومن يدري فلربما أصبح يوما ما قاصا روائيا وقد لاحظوا علي كما يقول احمد دقة في التسلسل والوصف و قد تعلمنا ذلك من الكتب

التي عكفنا عليها منذ الصغر وحرص أختي على أن أكون قارئا ولحد هذه اللحظة أشعر بالفخر كوني قارئ، قارئ مقدس. وحين غادر أصدقائي عند الساعة العاشرة مساءا أكملت السهرة مع أمي والإخوة كأنه مساء شرقي وأسرتنا منذ القدم تمتاز بعادات شرقية لا أعلم ما السبب ولكني أدرك تاريخيا أننا قادمون من المشرق.

شاي في فناء بيتنا لم أتذوقه منذ مدة. اكتشفت أني اشتقت لكل شيء هنا حتى للتراب الذي داعبته أناملي. يا إلهي كيف لم يفتك بي ذلك الشوق كيف لم يدمرني وأنا الفتى الرقيق الضعيف أم تراها طريق اليونان قضت على الضعف كله.

أظهرت أسرتي كلها إعجابها بالهدايا التي أحضرتها لهم من هناك وسألوني سؤالا محرجا

-متى تعود إلى هناك ؟كم ستمكث هنا؟ شهرا أم شهرين؟

-لا اعلم ربما أقل وربما أكثر في محاولة مني لأن لا اقطع الأمل عندهم فليس معقولا أن تخبرهم انك لا تجد شيئا تفعله هنا.

-الخير فيما اختاره الله. قالتها أمي وهي تقول في قرارة نفسها: "الخير في البقاء هنا. "

ولا تدري أمي كم أحب هذه الأرض وهذا التراب وليتها تدري.

آه لو تدرين كم أحببت هذا التراب، كم أشتاق له إذ أداعبه بأناملي الرقيقة، كم أحب منظر عودة أبي من السوق و جبلا يجاور قريتنا الصغيرة وأشجار الفلين الباسقة وشجر السرو الضارب في السماء الواقف كهمم الشهداء الذين ضحوا كي يحكم هذا الوطن هؤلاء الجبناء.

ثم بدأت رحلتي في الغد مع الوثائق التي أريد بها التسجيل في الجامعة، قصدت جامعتي وفي ذهني ذكريات، الجامعة الجزائرية هي المكان السيئ الذي نحن إليه بعد سنوات، هي المكان السيئ الذي نحبه بعد مغادرته. أصدقكم القول أيها السادة أن دمعتين أفلتتا من مقلتي لذكريات أنا عاجز عن وصفها، هل تتصورون كم نحترق نحن أصحاب الذاكرة؟ هل تدركون كم نحترق؟

تحرقنا الذاكرة وتحرقنا اللغة. لكم تصور كيف يقف النسيان عاجزا أمامهما.. لقد نزلت دمعة لأني تذكرت عماد الذي درس معنا ورحل قبل التخرج بشهر ونزلت الدمعة الأخرى لذكرى أحباء ومنازل ولا تلوموني فنحن العرب مصابون بحمى الأماكن. لقد ارتسمت أمامي صورهم جميعا كل بشيء يميزهم. ها هي اللغة مرة أخرى تخونني وأقف عاجزا متأملا. ما أسوأها من حياة. لماذا ذهبوا جميعا. حتى أنا أحسست نفسي غريبا عن المكان حتى كدت أسأل جدران الكلية هل نسيتموني؟ ألم أكن في كل يوم أمر من هنا؟ بل في غالب الأحيان أتكئ على

أحدكم منتظرا قدوم أحدهم. حتى كدت أسأل أشجار التوت كم داعبنا أغصانك في شهر نيسان.

الوجوه كلها جديدة حتى أعوان الأمن تغيروا، تغيروا في السن طبعا وخالطهم الشيب ولا تزال السجائر على حالها ترافقهم أينما حلوا. وبكل لغات العالم صرت أنا الغريب الوحيد هناك

إننا نتغرب في كل الأوقات، كل الأماكن في هذا العالم يمكن أن تصير غربة فقط إذا اتخذت مكانا في الذاكرة. نصيحتي لكم في هذه الحياة إياكم واكتساب ذاكرة جيدة. ستندمون

دخلت إلى إدارة كليتنا حزين القلب نشيطا رغم كل شيء لأن المرام جميل جدا والحق أني أول مرة أصادف موظفا كذاك رحب بي بشدة وأرشدني إلى كل الخطوات التي علي فعلها حتى آخذ وثائقي اللازمة بالتفصيل الممل، أعجبني تصرفه هذا معي لأني لم أعهد من قبل إدارة جزائرية تتصرف بلطف مع مواطن إلا القليل القليل خاصة إدارات الجامعات. وخرج معي الى بهو الكلية ودعاني إلى قهوة في نادي الكلية، شكرته جزيلا ثم بدأت الخصوصيات

-لديك ساعة جميلة يا ياسر

-شكرا. حفظك الله. من ذوقك

-اذن أنت تعيش في برلين

-نعم. منذ ثلاث سنوات

-مليحة مليحة، هنيئا لك (بصحتك (

-شكرا. حفظك الله

هل من هدايا هههههه

-أخذها كل أفراد عائلتي هههههه حظك يا سيدي

-حسنا لا تنساني المرة القادمة

-إن شاء الله إن شاء الله

ثم بدأ في سلسلة من الأسئلة جعلتني أندم على قدومي إلى الجزائر، ذنبي أني لا أحسن إفحام الآخرين، أنا شخص طيب فوق اللزوم. أجبت على بعضها ثم استأذنته بالمغادرة قبل فقدان أعصابي ولاحقني في الطريق يطلب رقم هاتفي. أعطيته رقمي مرغما وهربت

ثم استوقفتني فتاة وصديقاتها يسألن عن قسم ما

-لا أعلم. اسألن أعوان الأمن هناك

-لديك ساعة جيدة. قالت إحداهن.

-شكرا. من ذوقك

ثم غادرت مسرعا وبقين يتابعنني بنظراتهن كأنما سرقت منهن شيئا ما قبل أن تلاحقني إحداهن إلى الباب

-لا يحق لك قطع الحديث في وجوهنا. يظهر من بذلتك ووجهك أنك شخص مثقف وأنيق

-أعتذر. أنا فقط منشغل ومستعجل، لدي وثائق علي استخراجها الآن

-لا بأس، أعانك الله. كم رقمك.

-عفوا ليس لدي رقم هنا. وانصرفت مستعجلا

وقدر الله لي العودة إلى الإدارة نفسها ولحسن حظي أني لم أجد الموظف نفسه وإلا كنت سأرتكب جريمة بسبب أسئلته الشخصية المزعجة.

وجدت موظفة أخرى أعطيتها الوثائق لتضع عليها ختم الجامعة كآخر مرحلة. وعند خروجي صادفت تلك المجموعة من البنات اللواتي أوقفنني المرة الفارطة.

-أهلا بعودتك. ها قد عاد بك القدر. ألن تخصص لنا قليلا من وقتك يا رجل

-لا بأس أنا معكن

-هيا إلى النادي ندعوك إلى قهوة حتى لا تقول أنهن لا يكرمن الضيف

-حسنا.

أنت تعيش في أوربا إذن.

-نعم في برلين. ثم وصفت لهن كل حالتي المعيشية حتى أتجنب أسئلة شخصية أخرى

وما إن أتممت حديثي الذي كان يروق لهن كأنما يستمع إلى قداس الأحد أو خطبة الجمعة حتى بدأن في أحاديث الحب والغناء واللباس الأوربي وأنا أستمع وصوت في داخلي يقول لي

"ما الذي أجلسك هنا يا رجل"

واحدة منهن أفرطت في الحديث عن الحب حتى قاطعتها:" أنت في واد وأنا بواد" توقفي عن هذه المواويل الجوفاء. لقد مضى زمن الجلنار."

-وفي أي زمن نحن؟ تساءلت أخرى

-نحن في زمن الوجع القومي. كلفي نفسك مرة بحمل وجع القوم. ألا ترين كيف تتساقط الأرواح حولك، ألا ترين كيف تتألم الأمهات حولك والزوجات وكيف يبكي الآباء والأجداد، كلفي نفسك مرة فقط لا أكثر.

ثم استرسلت في الحديث كأني بي تذكرت لقاءاتي هناك في مقاهي الشمال، شتان بين الاثنين طبعا لكني أؤمن أن المقاهي يمكنها أن تغير فينا شيئا.

الحق أنهن استمعن لحديثي جيدا واستوعبن ربما ما كنت أقول، شكرنني في النهاية، ودعتهن ووعدنني بأن أجدهن أفضل في العام القادم. لا بأس لقد قدمت لهن فكرة جميلة خصوصا في آخر المحاضرة حين قدم بعض الشبان وانضموا إلى الجلسة. حيث أعجبوا رغم أن المحاضرة كانت في نهايتها، صافحوني. ثم غادرت. من عادتي أن لا أطيل الوداع حتى لا ينغمس في عمق الذاكرة.

-12-

الرابعة مساءا، المكان باب بيتنا، وعنوان الأغنية: "لماذا تغادرون"، تأليف أمي وعزف أخي الصغير ومؤثرات صوتية لعصابة تحكم البلد، هذه العصابة عكرت منذ 1957 مزاج كل جزائري ورغبته في الجلوس تحت ظل الوطن للاستماع لأغنية: "من أجلك عشنا يا وطني "

-اعتقدنا أنك ستمكث شهرا على الأقل، لكنها لم تمض سوى عشرون يوما.

-أنا آسف يا أمي، مضطر للذهاب الآن حتى أتمم تسجيلي في الجامعة قبل عودتي إلى العمل.

-شهر سيكون جميلا أو ربما شهران أجمل معنا

-أخاف أن لا أجد الوقت يا أمي، أنا أيضا راغب بالبقاء هنا لأيام أخرى.

غادرت دون أن أعانقها، لو عانقتها ما ذهبت أقسم، فأنا رجل عطوف جدا قد أضحي بحياة من أجل قط كادت أن تصدمه سيارة. رؤوف لدرجة أنك لو تحضنني أترك مستقبلي وكل مشاريعي لأجلك فما بالك بالأم، إنها الأم يا سيدي.

غادرت دون وداع طويل

-لن أطيل بإذن الله لأزوركم وإن احتجتم لشيء فقط اتصلوا سأسعد بتلبية ذلك.

لوحت أمي بيدها التي كانت تعد بها خبزا للمجاهدين إبان الثورة. لوحت بيدها الزكية وقلبها يحترق ماسكة دموعها حتى لا أراها تنتظر حتى أغرب عن نظرها لتطلقها، هل تصدقون أني لم أر دموع أمي قط عدا مرة حين بكت خالتها التي كانت بمثابة أمها. بكل لغات العالم الأمهات هن الجميلات.

أوصلني أحمد إلى المطار وموعد طائرتي على الساعة السابعة ليلا مع شركة لوفتانزا.

وقفت قبل دخول البوابة: "«أستودعك الله يا وطني، "عساني أراك يوما بخير "قلتها وغبار كثيف يغطي المحروسة كأنما القيامة حان موعدها، هو غبار المصانع العشوائية والطرقات المهترئة وفوضى حركة المرور."

هكذا إذن ركبت وكلي شوق متى أصل إلى هناك حيث النظافة والاخضرار والمطر، كلي أمل في نسيان متاعبي على هذه الأرض، لو بقيت أكثر من شهر لمت من الأسى طبعا على حال وطني، نحن الحالمون لا يسعنا العالم الثالث. غادرت وتركت خلفي تراب قريتنا الصغيرة وأشجار السرو وطعام أمي وعناد أخي الصغير.

وصلت الطائرة على الساعة العاشرة ليلا إلى مطار برلين ونزلنا نحو عالم جديد كأني تخيلت أصدقائي هناك يرحبون بي لم أخبرهم عن تاريخ عودتي حتى لا أحرجهم، هم طيبون جدا

مثلي حتى مارتن من الممكن زيارتي من هامبورغ. أحبهم حتى شغاف القلب.

ورحت أجر حقائبي في المطار وما أجمل ذلك الصوت صوت الحياة وتجديد العهد، ثم الميترو والتراموای الى KREUZBERGحيث منزلي الذي اشتقت وجيراني الذين سكنوا القلب بلطفهم.

وحين استلقيت على فراشي رن الهاتف.

-هالو، اه إيمي هذه أنت.

-مرحبا ميستر ياسر منذ مدة وأنا اتصل ولم أجدك.

-لقد وصلت للتو الى البيت قضيت أياما في الجزائر وها قد عدت.

-الويل لك أيها الإفريقي الشمالي، لم لم تخبرني.

-لا حجة لي سوى أني كنت مستعجلا. أعتذر

- لم أعتقد أنك ستتصرف هكذا، غبت عن حفل الأوبرا دون علم وغادرت الآن دون إشعار. ما السبب؟

-فقط كن مستعجلا يا إيمي. أعتذر مرة أخرى

ثم استرسلت في اللوم والعتاب كعادة النساء، لا يوجد هناك امرأة في العالم يمكن أن تمر على الحدث مرور الكرام، النساء عاشقات التفاصيل، لنا الله نحن الرجال.

-أرجوك يا إيمي، الآن فقط خلدت للنوم أريد الراحة، موعدنا غدا عن مقهى درويسبارغ.

-طابت ليلتك.

كان اليوم يوم جمعة وغدا يوم راحة، فرصة العودة إلى المقاهي، اشتقت إلى مقاهي الشمال، لست أدري ما الذي أحبه أكثر، هل الجبل البعيد الآسر قرب قريتنا أم مقاهي الشمال الأخاذة.

-صباح الخير للسيدة إيميليانا.

-صباحك صفاء أيها الإفريقي الشمالي

-نعم، أنا هو بالذات والصفات القادم من هناك من بلاد الشمال الإفريقي من الأطالس.

ثم لامتني قليلا وأنا في نفسي أقول "متى تنتهي هذه الورطة"

-لقد اعترفت يا إيمي وهذا أظنه يكفي ليعوض ملايين الأسباب ثم اعتذرت وهذا من شيم الرجال.

-حسنا، كيف حالك. وكيف حال بلدك.

-أنا متعب كوطن محتل وبلدي متعب كياسر.

-اوووه ما هذا التشبيه

-وأنت جميلة كوطن محرر.

-أووووووه هذا إعجاز يا ميستر ياسر المعجز.

-هل أصدقك، لقد تعودت منذ صغري على الاعتماد على نفسي.

-لكني أردت فقط الاطمئنان عليك

-أعرف، ولم أتعود على الاهتمام، كيف تريدين لطفل دخل باب العمل في الثالثة عشر. دخلته مرغما لا بطلا، يمكنك القول أن فكرة الاهتمام فكرة غريبة عني نوعا ما، أنا أحاول اكتسابها مع الوقت ولا أراها مشكلا.

-أرجو ذلك. وكيف كانت رحلتك؟

-رحلة هادئة.

-ليتك أخبرتني

-أرجوك يا ايمي، هل تريدين انسحابي دون رجعة؟

-لا يا ياس، أنا أمزح. لك مكانة غالية عندنا. لقد صرت واحدا منا. ولا تنزعج إذا ناديتك بالإفريقي الشمالي. أحب فقط ممازحتك.

-حسنا. لقد أحضرت وثائقي التي أحتاجها للتسجيل. ستذهبين معي غدا إلى الجامعة؟

-امم غدا. أدرس دواما كاملا من الثامنة حتى الخامسة مساءا.

-لا عليك. سأذهب وحدي.

-لكنك لم تتذوق قهوتك هذه ؟

-اتركيها قليلا.

-هل ستقص لنا حكاية وصولك إلى هنا. لديك أسلوب حكائي آسر. لا يمكن لمثلك إلا أن يكون كاتبا روائيا أو مترجما.

-أقص عليك قصة الوصول وقصة الهروب وقصص أخرى. أنا فقط أحتاج للوقت. إني أسابق الوقت يا سيدتي ولا أدري أين سينتهي بي المطاف.

-كأنك تغيرت قليلا يا ميستر ياسر. عهدتك متفائلا كثيرا لكني ألمس في حديثك الآن اكتفاء لا أرتاح له.

تمتمت قليلا دون أن تسمعني، هي لا تدري أني قضيت خمسة عشر يوما في بلاد من بلدان العالم الثالث، هي لا تعرف كيف يتسلل سرطان الاكتفاء إلى نفسك في تلك البلاد.

-لا، أبدا يا إيمليانا. فقط تعب الرحلة ولا شيء غير ذلك.

ارتشفت قهوتي بصوت عال كأني أنتقم منها. القهوة لا تغير القدر لكنها تحتضنك حين يخونك العالم وتقف معك حين يغادر الجميع. رشفة بعد رشفة أستعيد نظراتي الثاقبة إلى أشياء جميلة، إلى هواء برلين المنعش، إلى اخضرار آسر. تعود إلى ذاكرتي إلى المكتبة التي أشتغل بها. إلى كل شيء جميل.

ثم ابتسمت كطفل صغير.

-وكيف حالك أنت؟

-آه شكرا للرب أنك سألت عن حالي الآن

-أنا لا أنسى يا إيمي. قد أخبرتكم مليون مرة أن مشكلتي في الحياة ذاكرتي.

-أنا بخير، أتعبتني الدراسة قليلا. ليتني أنتهي منها قبل أن تقضي علي. ولدي اختبارات هذه الأيام.

-كل التوفيق لك أيتها الرومانية الشرقية.

-هههههه عبارة جميلة جدا. قد أخذت ثأرك الآن.

-كلنا غرباء يا سيدتي. كل وغربته.

ثم افترقنا على أمل لقاء جديد.

-13-

آه منك يا فيروز، حين أسمع صوتها قادما من هناك من المقهى الشرقي المجاور لبيتي فيkreusberg ، مدمن ذلك الشرقي ومقهاه أيضا مدمن ورواده أيضا أنا أيضا مثلهم ولكني تعبت من الذاكرة. لذلك أقف كل صباح تقريبا عند شرفات منزلي أتأمل وأحيانا يصدمني بأغنية تنبش في جروح الذاكرة. وقفت يوم الاثنين عند الشرفة الغرب"يا مرسال المراسيل عالضيعة القريبي..... "

لدقائق أسرني وجعلني أردد معه الكلمات، وقد قالت فيروز كلمات ليست كالكلمات. قبل حمل محفظتي والوجهة جامعة برلين.

-صباحكم سعيد

-صباح الخير. مرحبا

-أريد التسجيل في قسم الأدب الألماني سنة أولى وقد أحضرت كل وثائقي.

-هل لديك بطاقة الإقامة هنا؟

-بالتأكيد لدي إقامة سارية لمدة خمس سنوات.

-حسنا. تضع ملفك، يدرسه المجلس العلمي ثم تتلقى الرد بعد شهر.

وضعت ملفي وقفلت عائدا. اليوم يوم عمل وبقي عن عطلتي ثلاثة عشر يوما. سأقضيها في التجوال. سأعود لنشاطي

اليومي، سأعود كما كنت. إلى لقاءاتي ومحاضراتي. غدا يوم جميل. وقبله بقايا اليوم.

وأنا في طريقي راودني الشك: "درست تخصص هندسة الإعلام الآلي في بلدي فكيف سيتم قبولي في شعبة الأدب الألماني؟"

ثم استحضرت قليلا من التفاؤل: "هنا نظام تعليمي مميز أكيد لن يصدوا رغبتي في ذلك"

غدا أجمل بإذن الخالق.

-هل تعلم يا ميستر ياسر أني لم أعتقد يوما أنك درست شعبة أخرى في حياتك غير الآداب؟ تساءلت ايمي.

-هههه كل الناس يقولون ما تقولين. ولكنها الحقيقة.

-حضرة المهندس ياسر هههه. ميشال بضحكة فارهة ممزوجة بسخرية جميلة.

-ألم تروا طبيبا يحب الآداب؟ ألم تروا في حياتكم رياضيا يحب الآداب؟

-بلى. يوجدون.

-إذن لا عجب. كما أن الآداب ذوق الحياة.

-إلا أنت يا ميستر ياسر. لا يمكن البتة. لا أستطيع التصديق.

-يجب تصديقي يا إيمي. الآداب ذوق الحياة وسرها الذي لا ينتهي. ربما لم تكن لي الفرصة لأتحدث عن مجال دراستي. ألا

ترون كيف غزتنا الآداب منذ قدومي إلى هنا. بل إني نسيت حتى أني مهندس وانغمست في الكتب ومكتبة آنا ريختر. الآداب أنقذتني من التشرد، حملتني من الرصيف إلى منزل جميل في kreusberg.

-وما قصة الرصيف هذه؟؟ تساءلت إيميليانا

-هي أيضا حكاية أخرى وقبلها حكايات لا تنتهي.

-طبعا لا يمكن الآن. لكن لا بد أن تضرب لنا موعدا في مقهى صديقك جورج ذاك.

-تمام

كم هي صعبة تلك الأماكن التي تحيي فيك جراحاتك الدامية ورواحل قبائلك البائدة.

من الطبيعي جدا أن تكون لديك ذاكرة، لكن النظر إلى شبر هناك في أرض ما في بلاد ما لتحيا فيك الجراحات فهذا منتهى الألم وهذا منتهى أساطير الذاكرة.

وكلما مررت بمكان ترددت عليه إبان فترة وجودي دون مأوى كلما تذكرت شيئا مؤلما، لماذا لم يبتكر العلماء بلسما يشفي من الذاكرة، إني لا قدرة لي يا الله، لماذا وصل العلماء إلى القمر، لماذا اخترقوا الفضاء الخارجي وعجزوا عن اختراع قرص صغير يشفي من صخب الذاكرة ؟

هذا نزل بت فيه ليالي آمنا فقط من البرد، جائعا أحيانا ومتعبا أحيانا أخرى، وهذا رصيف بت أتقلب على جوانبه ليالي

غير آمن لا من البرد ولا من الجوع، أليس الأمن والجوع هما قضيتا العالم منذ آدم، ألم تقم حروب طاحنة منذ الأزل حول الأمن والجوع، ثم إني قد ثرت حتى أصل لما أنا عليه الآن، وإن كنت من باب عدم تقديسي لنفسي أراه عاديا. وإذا كان عاديا فكيف كانت ثورتي؟؟ آه ثرت بكتبي ربما. الكتب أنقذتني. آه تذكرت ربما حظي فقط مرور مارتن بي ذات صباح. آه تذكرت أصعب المعارك هي تلك التي لم نخضها بعد.

هناك معارك نخوضها في السر، حتى أنفسنا لا تعلم أننا في حالة حرب، لا أصوات الجرحى ولا جثث الموتى ولا أزيز الطائرات ولا صليل السيوف ولا صهيل الخيول، إلا هدوء يخيم على النفس وحرب دائرة لا نعلمها. نحن لا نعلم إلا بعد زمن بعد أن تصبح تاريخا وبعد إحياء الذاكرة. هل نحن مجانين إلى هذا الحد. ألم يخترع العلماء بعد بلسما للذاكرة؟

وماذا لو لم يأت مارتن ذلك الصباح. آه تذكرت مارتن، هذا هو الألم بذاته، نحن لا نتألم لفرط أوجاعنا بل لفرط ذاكرتنا. الذاكرة لا تأتي إلا بالوجع. كيف مارتن وكيف الآخرون. ربما هم بخير ربما لا. المؤسف في الحياة أن اللحظات التي نحبها تمر مرور البرق. وحين تعود بعد زمن تعود بذلك الشوق القاتل المحزن ربما يتطلب الأمر منا مخرجا بارعا يعيدها إلينا في نسختها السعيدة.

الصباح برليني خالص بمطره، والساعة تشير إلى العاشرة صباحا وأنا جالس عند جورج في المقهى. رن هاتفي.

-هالو

-هالو، ميستر ياسر. إدارة جامعة برلين الحرة تخاطبك

-هالو. نعم.

-يرجى منكم التقدم إلى إدارة الجامعة، مصلحة الطلبة الأجانب.

-هل يمكنني المجيء الآن؟

-بالطبع. يمكن.

واستقلت باصا مباشرا نحوهم لعل هناك مستجدات. وكم أحب ذلك الباص الملون الذي يذكرني بمدينة كبادوكيا الملونة هناك عند جبال طوروس التركية. ألوان متناسقة كأنما احتفالية ما تجري داخله وجمله هدوء في الداخل، ومن عادة الألمان السكوت الدائم حيث لا يتكلمون إلا نادرا، إلا عند الحاجة لا تراهم في الباص إلا يقرؤون كتبا أو منشغلين بهواتفهم وأعينهم لا تتجه نحو الآخرين البتة كأنما هم مكتفون بأنفسهم كأنهم لا يريدون شيئا من العالم، تحس كأنهم لا يفكرون إلا في تقديم الإضافة للعالم، العالم الذي لفظهم عند نهاية الحرب الثانية واكتفى بالتفرج عليهم. فإذا قرأت لنيتشه أو كافكه أو

غوته لا شك أنك ستلاحظ ذلك بنفسك. إنهم لا يريدون شيئا من العالم.

كنت مستعجلا ومتشوقا متى أصل إلى الجامعة والحق أن الرحلة كانت لمدة نصف ساعة.

-هالو. أنا السيد ياسر، اتصلتم بي منذ قليل وقد جئت الآن أستفسر عن الأمر.

-مرحبا ميستر ياسر. قدمت طلبك للتسجيل سنة أولى ماستر أدب ألماني ويؤسفنا إعلامك أن المقاعد البيداغوجية غير متاحة الآن ونرشدك إلى جامعة أخرى تجد فيها ضالتك.

-ما السبب وما الحل.

-المقاعد غير متاحة الآن نظرا لكون ديبلومك مهندس إعلام آلي. نرشدك إلى جامعة دريسدن. من المؤكد قبولك بها.

-حسنا ومتى آخر أجل للتسجيل.

-بها دورتان، صيفية وشتائية واختر الدورة التي تناسبك.

-شكرا جزيلا.

وقفلت عائدا خائبا ولا أدري ماذا افعل.

هل أنتقل إلى دريسدن؟ وماذا عن منصب عملي هنا في مكتبة آنا ريختر؟

وقفت في مفترق طرق قرب الجامعة محتارا. أهو سوء الحظ أم ماذا؟ وربما ليس سوء حظ، وربما هو القدر. أليس القدر من يسير حياتنا؟ يجب الاعتراف أنه أحيانا نقوم بكل الأسباب ثم

يعاكسنا القدر ونعود أدراجنا الى طبيعة الإنسان الهلوعة القانطة وليتنا نرضى ولكن إذا رضينا يجب أن لا نخلط ذلك بالكسل والجلوس والاستسلام للطبيعة وانتظار النهاية. أخشى ما أخشاه هو ذلك الشعور حين تجلس تنتظر نهايتك متى يحين وقتها كأنك في سن التسعين ارتويت من بحر الحياة ولم تعد لك طاقة حتى لتتذوق مياه عذبة قرب بيتك.

عدت أدراجي إلى بيتي وعلى الفور اتصلت بمارتن لعله يدلني على طريق.

-هالو مارتن الجميل. كيف أجدك

-هالو ياسر البهي. انا بخير وماذا عنك

-بخير وأريد استشارتك. لم يقبلوني في جامعة برلين الحرة وأرشدوني إلى جامعة دريسدن

-شيء منطقي يا ياسر، جامعة برلين مطلوبة جدا، وبما أنك تريد تغيير شعبتك نحو الأدب الألماني فالحظوظ ضئيلة. دريسدن أيضا جميلة جدا. وبالقرب منها لايبزيك.

-لكني وددت لو تم قبولي في برلين.

-كن متأكدا أنهم فعلوا ما بوسعهم كي يتم قبولك ولم يتمكنوا. هكذا هي الجامعات العريقة في العالم أجمع.

ولأني تعودت في بلدي على المحسوبية شككت بداية في قرار الجامعة وكدت أن أسأل مارتن ان كان يعرف أحدا يمكنه قضاء حاجتي لي. يا أسفي كيف لم أنس بعد تلك الأشياء السيئة

وتلك السيناريوهات المقززة. إنها خمسة وعشرون عاما أيها السادة. عمر جيل بأكمله. يا إلهي كيف مضى هذا العمر. وبالأمس فقط غادرت الجزائر.

ارتحت قليلا لقول مارتن وتريثت في اتخاذ أي قرار..

ماذا بوسع بائس مثلي فعله.

وافتقدت لإيميليانا والرفاق حتى اتصلت بي تدعوني لقهوة عند مقهىCafé Anna Blume، طبعا لأني واعدتهم ذات صباح بأن أحكي لهم رحلتي إلى هنا. أنا فقط وعدتهم من تلقاء نفسي، حتى مارتن الأقرب إلى نفسي لم يسألني يوما كيف وصلت إلى هنا.

والأمر مؤلم حقا رواية رحلة طويلة جدا كأنها مائة عام بأحداثها، عندما كنت صغيرا كنت أعتقد أن الكتابة تحررنا وحين وصلت إلى سن الثامنة عشر صرت أقول أن الكتابة انتحار والآن عدت إلى أصلي. الكتابة تحررنا في مرحلة ما تحررنا حين نكون بحاجة للحرية وتطلق علينا رصاصة الرحمة حين نمل من الحياة.

-هالو أيها الإفريقي الشمالي، نحن الآن في مقهى شمالي، ألن تقص على مسامعنا شيئا تطيب به أنفسنا؟؟ لقد أنهكتني فترة الامتحانات التي مررت بها الأسبوع الفارط، يكاد رأسي ينفجر.

-أوووه منذ متى، ألست المرأة الصبورة.

-إنها شامخة كالجبل. قال ميشال.

-يا جبل ما يهزك ريح

-أوووف، كفوا عن هذا المدح. أنا في الحقيقة ضعيفة جدا، ضعيفة لدرجة أني قد أتنازل عن أحلامي لمجرد تعب. لدرجة أني قد أقضي يوما كاملا حزينة لمجرد رؤية منظر قط دهسته سيارة.

-في الثانية أنت إنسانة وفي الأولى أنت تخفين قوة لا يعلمها إلا الله. أنا لا أصدق هذا.

-صدق يا ياس صدق.

-هناك لحظات ضعف تمر بالإنسان لا يعلمها إلا الله. هناك لحظات أنين يصل إليها الإنسان لا يسمعها إلا الله.

وقد ورد في قرآننا آية يقول فيها الله: "وخلق الإنسان ضعيفا"

-آه جميل ومتدين أنت؟؟

-المتدينون يحسبونني فاسقا والفساق يعتقدون أنني متدين وأنا لست لا هذا ولا ذاك.

-من أنت إذن؟؟ تساءل ميشال

-أنا البسيط الذي يذنب ويتوب، الذي يخطئ ويصيب. العفوي الذي يعامل الجميع بحسن نية.

-في هذه نعم. وهذا ما يجذبنا إليك.

ما جديدك. هل سجلت بالجامعة؟

-ليس بعد. أخبروني أنه لا توجد مقاعد متاحة وعلي الذهاب إلى دريسدن.

-هذا حظك. يمكنك التسجيل في دريسدن وتحول إلى برلين الموسم الربيعي.

-حقا؟

-نعم. هذا ممكن. بعض الأصدقاء هكذا فعلوا حين لم يفلحوا في التوفيق بين العمل والدراسة.

-فكرة جيدة يا ايمي.

-ألن تقص علينا رحلتك ؟

ذاك ما يحيرني. الكتابة تحررنا وأنا كما تعلمين باحث عن الحرية.

-هل هذا يعني انك ستلجأ إلى الكتابة وتتركنا؟

-يعجز اللسان عما يقدر عليه القلم ثم إني في مرحلة أحتاج فيها للحرية.

-لكني أرى أن الكتابة انتحار. قالت ايمي.

-أنا أيضا يا سيدتي اعتقدت ذلك في سن الثامنة عشر لكنها الآن صارت ملاذي الآمن.

-يبدو أننا سنحرم من إبداعك في الوصف.

اه نسيت أني قد أخبرتك من قبل أنك لابد أن تكون روائيا بارعا.

-ولربما تفتح لنا الكتابة فضاءات عظيمة تجعلنا نصل إلى أناس لا يمكن للزمن ولا والجغرافيا ملاقاتهم.

-لنا عندك رجاء

-؟؟

-تقص عينا جزءا ثم تكمل الباقي في حريتك كما قلت.

-هذه نعم.

-14-

-كان الصباح باكرا والجو مشمس، كأيام شهر سبتمبر الأولى التي تشبه الصيف قبل مداهمة خريف يخلط أوراق العام خرجت ومعي حقيبة أعطاني إياها صديقي بثمن بخس، قل أنه وهبنيها. هاتفي القديم نوعا ما، ببذلتي التي لا تساوي كلها خمسة آلاف دينار بعملتنا الرخيصة، خرجت ولم أخبر عائلتي، أخبرتهم من قبل أني سأغادر يوما ما نحو الشمال ولم أحدد لهم إلى أين بالضبط.

من عادة المتوجهين إلى خارج البلد أن يوصلهم أهلهم إلى المطار ويودعونهم إلا أنا وأمثالي الذين لا مولى لهم، كانت عائلتنا فقيرة جدا، سيكون الأمر مكلفا جدا لو طلبت منهم مرافقتي إلى المطار.

موعد طائرتي كان على الساعة التاسعة مساءا، اخترت هذا الوقت صدفة وطبعي أحب أسفار الليل وأمقت أسفار الصباح الباكر. واليوم هناك عندي كان يبدأ بعد منتصف النهار، في وطني تبدأ الحياة بعد منتصف النهار.

ذهبت فقط في سيارات الأجرة التي تقل إلى الجزائر العاصمة، تفقدت قبل الانطلاق جوازي الأخضر ونقودي التي لم تتجاوز ال 500 أورو وقلبي عن آخره بالتوكل على الله.

وصلت باكرا إلى مدينة الدار البيضاء أين يتواجد مطار هواري يومدين الدولي الذي لا يشبه المطار. دخلت إلى بهو

المطار بعد الإجراء التفتيشي الروتيني. الساعة الآن الخامسة مساءا.....

وقبل دخول المطار أخذت نظرة لدقائق اتجاه مدينة الجزائر التي يكسوها الغبار ودخان المصانع والملوثات الأخرى: "هل أقول الوداع أيتها الجزائر، هل سأعود إليك يوما ما، هل سأعود إليك سالما غانما؟؟ هل سأعود إليك مظفرا؟ هل سأعود إليك مكفنا؟"

وطرحت أسئلة أخرى كثيرة فيها من الأسف مافيها، "هل تعلمين يا جزائر أني خرجت مرغما؟ ألم يخبروك بذلك؟ أصدقني أيها الوطن لمرة واحدة فقط. هل أخبروك أن كل شيء على ما يرام؟؟ ألم يخبروك أننا نغادرك مرغمين لا أبطالا؟؟

ثم دخلت المطار ولو زدت قليلا لبكيت، يعتقد الجميع أني رجل قوي أمام معارك الحياة لكنني أضعف مخلوق ربما، ضعيف لأني عفوي إلى حد كبير، إلى حد لا يطاق، لأني أحب الخير إلى حد لا يطاق.

جلست في بهو المطار والتقطت لي صورة للذكرى وفي مخيلتي أني سأنظر إليها يوما ما وأقول: ها قد تغير كل شيء. للأفضل ربما. واتخذت مكانا يناسب لمشاهدة الملأ وهم داخلون خارجون من المطار وأناس من جنسيات مختلفة، آخرون فرحون وآخرون مودعون وآخرون ذاهبون. وأبصرت شابا نازلا إلى البهو حزينا

بائسا، جلس بجانبي قليلا، يضع يديه على رأسه، يتمتم كلاما لم أفهم منه غير عبارة:"ياويلي ما لهذا الحظ يفتأ يعاكسني"

تجرأت وسألته:" ما بك يا أخي، أشر أصابك؟

ثم بدأ يسرد قصة بدايتها هذا المطار ونهايتها هذا المطار ووسطها حياة جميلة هناك دون وثائق انتهت بحظ سيء أعاده إلى هنا.

لا عليك يا صديقي. كل شيء قدر، وحاولت قدر المستطاع تهدئة روعه من مشهد إنزاله في هذا المطار.

أبصرت آخرين أيضا يودعون أهلهم الراحلين وبعضهم يبكي، خيل لي في تلك اللحظة أن لا أهل لي ولا وطن وأن هناك مشاعر في هذا العالم لا نعرفها، وجذبني بعدها مشهد تعامل موظفي المطار باللغة الفرنسية. وتساءلت: هل لغتنا الأم الفرنسية؟ أم أن الفرنسية هي لغة العالم ؟؟ "سؤال في الحقيقة إلى هذه اللحظة لا أجد له جوابا غير أننا لم نتحرر بعد. نعم نحتاج لأن نتصالح مع أنفسنا ونتحرر من تبعيتنا لطرف ربما نحن أفضل منه. لماذا لا يتكلمون بالعربية أو الأمازيغية لغتا البلد؟ وإذا أرادوا مواكبة العالم لماذا لا يتكلمون بالإنجليزية؟؟

قد حان وقت حجز المقعد وتأشيرة الركوب، الجواز وتذكرة الطائرة وتوجهت إلى مكتب الخطوط الجوية الجزائرية، خاطبوني طبعا بالفرنسية، حجزت مقعدا واستلمت تأشيرة المقعد، اخترت

جانب الطائرة حتى أتأمل السحب ومنظر المدن من الأعلى. إلى قاعة صالة الركوب بعدها في انتظار الطائرة.

هدوء خيم على نفسيتي كمن ينتظر حدثا عظيما، كمن ينتظر القدر وما في جعبة الحياة لتمنحه له. والمسافرون يأتون تباعا ينتظرون رحلاتهم، سبحان الله، كل إلى وجهته، كيف تشعبت الحياة هكذا وصارت تعقيدا عظيما وفسحة لا يعلم حجمها إلا الله، كل سيصل بعد ساعات إلى بلاد أخرى، هل بين هؤلاء من هو في مثل حالتي ذاهب ولا يدري أين سيصل به المقام؟ ربما وحدي، ربما أنا وحدي دائما كأبي ذر الغفاري الذي قال عنه النبي: "يمشي وحده ويموت وحده ويبعث وحده". لكن لا بأس أواسي نفسي كل لحظة بالأمل في الله وليس لنا مهما تعدد الأصحاب والأهل سند مثل الله.

ركبنا الطائرة بعد إجراءات روتينية أخرى، إنها المرة الثانية وقد كنت لا. اهتزت بنا عند الإقلاع حتى بدأت أرى الجزائر العاصمة بصورة مكبرة، شيئا فشيئا لم تعد المنازل والبنايات تبدو سوى كنقاط، واستوت الطائرة فوق السحاب، عالم أخر يعود بنا إلى دهاليز النفس وخدوش الذاكرة.

ثم لم نعد بعدها نرى سوى مياه البحر المتوسط. آه يا بحر الحضارات وبحر الحروب بحر أفراح العثمانيين ذات زمان، وبحر كان الجزائريون أسياده في زمن ما، زمن كانت الولايات المتحدة

تدفع الضرائب لتجتازه. كيف انقلبت الحياة بهذا الشكل وصرنا ضعافا بل ربما صرنا أراذل القوم.

هي ثلاث ساعات أعلنت مضيفة الطائرة أننا على بعد دقائق من مطار أتاتورك الدولي بإستنبول. هاهنا مدينة الحضارات، هاهنا مدينة الفاتح وأمجاد العثمانيين، عثمان بن أرطغرل وسليمان ومحمد الفاتح وسليم وبايزيد والآخرون. يالها من حضارة كيف ولت؟

مطار أتاتورك الدولي كبير جدا وواسع تقف فيه على رغبة الأتراك في التوسع في هذا العالم الفسيح واسترجاع أمجاد أجدادهم العثمانيين. نزلت وهذه أول مرة ألج مطارا كهذا بحكم أن مطار هواري بومدين هو أسوء مطارات العالم بل يجب تسميته محطة طائرات لا أكثر، حولت عملتي إلى الليرة التركية في إحدى فروع البنوك ثم خرجت إلى المدينة الآسرة حيث تجتمع حضارات لا تنتهي، حضارات مبهرة.

ولمحت عيني عازفا جالسا على قارعة الطريق يعزف موسيقى تركية خالصة، ونحن في المغرب العربي نتذوقها جيدا. إنها موسيقى تحكي لك تاريخ هذه الحضارة، وفي كل مكان تجد الموسيقيين كما تجد في البرازيل لاعبي كرة القدم. كأنما الموسيقى عند الأتراك هبة إلهية لا ينافسهم فيها أحد. استمعت إلى أحدهم على قارعة الطريق ثم لآخر في محطة الميترو، إنك تجدهم في كل مكان، فقط كن متذوقا ولا أنسى أبدا جلستي في أحد

المطاعم أتناول طبق الشاورمة وذاك العازف يعزف رائعة لم أسمع من قبلها يحاكي بها تاريخا مضى وحبا يبحث عنه العالم ليعيش الجميع في نعيم. كأن الأتراك بموسيقاهم يعبرون عن الحب الذي ينبغي أن يسود وحضارتهم التي ينبغي لها أن تعود.

-هاااي توقف، دعني أعبر بكلمات بسيطة عن قدرتك هذه على البوح.

أنت مبهر جدا يا صديقي. أنت مذهل يا ميستر ياسر

-ليس لتلك الدرجة يا إيمي. أنا في الحقيقة لا أحسن البوح. أنا فقط أعبر بكلماتي البسيطة. أنظري إلى بساطتها ألا ترين أنها تخلو من التعقيد. نحن نكتب لنرتاح من تعب الحياة ونكتب لأولئك الذين قد يشاركوننا حزن الحياة ومرها، الذين قد يقرؤون ما نكتب يوما ما فيتمنون لقاءنا، نحن نكتب لأولئك الذي نتمنى لقاءهم أيضا، فليس بإمكاننا الالتقاء بالكثير من الناس حول هذا العالم. لا يمكننا العيش في أزمان أخرى غير زمننا هذا. الكتابة فقط من يفعل ذلك.

-أنا أستمتع بما تقول يا ميستر ياسر وليتني أقرأ روايتك يوما ما. أعقب ميشال.

-يطيب لي ذلك. ربما تصبح رواية.

-كأنها رواية. أليست الرواية سوى قصة طويلة يرويها شخص لأصدقائه في المقهى؟ تساءلت إيمليالنا.

-كل واحد منا يمكنه عرض حياته على العالم في شكل رواية. طبعا إذا تضمنت شيئا يستحق القراءة، إذا تضمنت قضية وحربا وحبا وسياسة وتاريخا...

-يبدو أن حياتي لا حدث فيها ولا قضية فيها ولا تاريخا ولا سياسة. يبدو أنها لا تصلح لأن تكون رواية.

-تصلح يا أيتها الرومانية. أليست لديك قضية في الحياة؟

-طبعا لدي. أريد نشر التسامح بين أفراد العالم وأريد المكافحة من أجل السلام وعقاب المجرمين ومجابهة طغيان البشر.

-ها قد قلتها. أنت تريدين فقط. أنت لا تقومين بذلك. لو تقومين بذلك سوف تصبح حياتك رواية عظيمة، ستحصل لك مواقف عظيمة وحروب حامية الوطيس لا تنتهي.

-حسنا يبدو أنه قد حان وقت المغادرة. نلتقي في فرصة أخرى بإذن الخالق.

غادرنا كل إلى اتجاهه وعدت أنا إلىkreusberg منزلي الحنون وجيراني الطيبين، الذين لا يسمع لهم حسيس كأنهم ملائكة.

أوووه لم يتبق علي سوى خمسة أيام عن نهاية عطلتي السنوية. الأيام تمر بسرعة هنا، اليوم كالساعة والساعة كالدقيقة والشهر كاليوم.

-15-

بعد إرشادي إلى جامعة دريسدن قررت الذهاب إليها ثم أخبرني ألبرتو أنه يمكنني التسجيل في الدورة الربيعية أفضل الشتاء اليوم فيه قصير وأحتاج لبعض الوقت كي أتأقلم مع العمل هناك. شدتني قضية مالية بحتة فقد كنت أرسل النقود لأهلي كل مرة، من الطبيعي التفكير في الجانب المالي أولا. حسنا الربيع سيكون مناسبا جدا، النهار طويل والنفس تجد متسعا لها، ليس من السهل تغيير وضعيتك بسرعة فجائية، صحيح نحتاج لكثير من المغامرة في حياتنا فقد قال الشابي ذات يوم على لسان الحياة: أبارك في الناس أهل الطموح ومن يستلذ الخطر وألعن من لا يماشي الزمان ويقنع بالعيش عيش الحجر.

عدت بداية سبتمبر إلى العمل، إلى المكتبة التي اشتقت لها مكتبة آنا ريختر، إلى الكتب حين أرتبها على الرفوف إلى أوراقها حين أتصفحها إلى زملاء طيبين. كأني بي أحيانا أتخيل نفسي في المدينة الفاضلة. أيها السادة هناك مقاطع في حياتنا مقتطفة من الجنة، جلسة في المكتبة، حضن أمك الدافئ، مودة زوجتك الحبيبة، صحبة عالم متواضع. فقط لنكن واقعيين أن الحياة خلقها الله ناقصة وجعل الكمال في الجنة فقط لأنها دار البقاء.

أمضيت على محضر الدخول بعد شهر من الفوضى ذهب أدراجه بين زيارتي الجزائر واستفساراتي في الجامعة وأيام تجوال. عودة إلى الالتزام والحيوية والنشاط.

-لقد سأل عنك بعض رواد المكتبة يا زميلي.

-اه. آسف كنت في عطلتي السنوية.

-لقد عودتهم بنقاشاتك حول الكتب واطلاعك وثقافتك.

-ألهذه الدرجة ؟ مستواي عاد جدا، ربما بينهم من هو افهم واعلم مني.

-ربما أنت تملك زمام المبادرة وهذا هو سر الحياة. المبادرة ثم المبادرة.

-كنت فتى مبادرا في صغري ثم تلاشيت ثم ها أنا عائد إلى المبادرة. لا مفر منها يا زميلي.

كنت فتى مبادرا شغوفا بالحياة، سبحان الله كيف تغيرت الحياة بسرعة، بل كيف تغيرت أنا، كيف انقلبت من ذلك الفتى الشغوف الذي يحب اكتشاف كل شيء إلى فتى خامل لا يقدر على المحاولة حتى. لكنني الآن عائد إلى رشدي، لا أنكر أيها السادة أني رسمت عالما حين كنت صغيرا خاليا من فوضى العالم الثالث يجتمع فيه تراب قريتنا ونسيم الجبل مع نسائم الحياة في كل مكان، في كل أرض جميلة بأناسها، بأخلاقها، عالم يجتمع فيه الهدوء مع المدينة بعيدا عن الفضولية والآخرين الذين يعكرون صفوك وبطش السياسيين ومزوري التاريخ وسارقي الأحلام، نحن لا نعاني من نقص في الموارد نحن نعاني من كثرة اللصوص، اللصوص سارقو الأحلام، لقد سرقوا أحلامنا. حتى أني صرت أشك في المعلمين الذين درسونا في الابتدائي أنهم

كانوا جواسيس يسربون كل التعابير التي كنا نكتبها إلى السياسيين، معظم التعابير التي كتبناها أيام الابتدائي كانت تتعلق بأحلامنا: "ماذا تريد أن تصبح في المستقبل، ماذا تريد تقديمه للعالم عندما تكبر".. ربما كانوا ينقلون أوراقنا إلى السياسيين كي يسرقوا أحلامنا قبل أن نصير كبارا. لماذا كل هذا الأسى أيها العالم.

وأتى رواد المكتبة يصافحونني وبعضهم يعانقني، اشتاقوا لي وأنا أيضا اشتقت لهم بعد طول غياب، اشتقت لهم كما أشتاق للكتب كلما ابتعدت عنها، وكلما ابتعدت عن الكتب عاقبني الله بالبشر. مرت السيدة آنا بالقرب منا، توقفت، تأملت للحظات

-آه ميستر ياسر عدت وعاد النشاط للمكتبة، كيف صرت محبوب هؤلاء، أخبرني ما السر لعلي أتبعه، أنا كما ترى تجاوزني الزمن وولى ذلك النشاط.

-لا سر يا سيدتي غير خفة الروح ولا شيء غير حب الكتب.

-كنت أتوقع أن توظيفك معنا طفرة كبيرة لمكتبتنا. أنتظر منك الكثير أيها المثابر.

أعجبني قولها ولا أدري هل سيدفعني للعمل أكثر أم سيدفعني لحساب ألف حساب لعلاقتي بالمسؤول، حملت معي من وطني الخوف من الاستغلال، استغلال العمال ثقافة عندنا

نحن سكان العالم الثالث فوق كل استغلال، هل سمعتم يوما باستغلال الأطفال في العالم الأول؟ طبعا لا وألف لا. صحيح أن الوظيفة هي الأنموذج الحالي للعبودية لكنها في العالم الثالث العبودية ذاتها. ووظيفتي في المكتبة شغف وحب قبل ان تكون وظيفة، أحس نفسي أنتمي الى عالم القراء وأهل الشغف بملمس الكتب الساحر ورائحتها التي تشبه رائحة الحب، القراء هم أهلي، هم مني وأنا منهم.

فتحت ذات مرة كتابا باللغة الألمانية، كان كتابا مترجما لرسول حمزتوف، وقعت عيني على إحدى العبارات: "شيئان في هذا العالم يستحقان التضحية الكبيرة، وطن حنون وامرأة رائعة"". تركت وطنا كان حنونا في صباي ولا امرأة لي الآن، ها أنا حقا أنا.

كانت أمي تلمح لي كل مرة بتعلقها الشديد بي، وتلومني كلما أطلت الغياب أو تخلفت عن جلسات المقاهي وكنت أنا رجلا تائها، طبعا ليس من يبحث عن الحب كمن يبحث عن وطنه تحت الرماد.

-ربما لا أِروق لك أيها الإفريقي الشمالي.

-ليس كذلك يا عزيزتي، انا سعيد بقربك ولا أخفي ذلك.

-لكنك تبدو محرجا وترفض التعبير حتى. كيف أعرف ان لي مكانة ما. لا بد من التعبير قل شيئا، اصرخ، عبر، قل شعرا اكتب رواية، انظم قصيدة، اضربني. فقط لا تبق هكذا تائها.

-كيف لا أتيه يا أيتها الرومانية المهاجرة وقد تركت وطني تحت الرماد وكيف أقول لك أني أحبك وقد مضى زمن الجلنار. جربي أنت الانشغال بوطنك هناك النائم تحت التراب.

-بالنسبة لوطني قد غادرناه منذ زمن بعيد والوطن هو حيث يجد الفرد ضالته ومتعته وهنا وجدت حياتي إذن هذا وطني. تحيا ألمانيا للأبد.

-أنا أيضا أحاول الاقتناع بالفكرة ذاتها لكن دون جدوى، حرب دامية تجري رحاها في دماغي، براكين وانفجارات في ذاكرتي بلا جدوى.

أنا أيضا أريد الاقتناع بالفكرة لكن متى؟ لا أدري يا إيمي لا أدري.

-وهل ستقضي حياتك تبحث عن الوطن، قد أخبرتني منذ قليل عن مقولة حمزتوف. آما إن كنت لا تراني رائعة فذاك شأن آخر.

-أنت رائعة يا إيمي وأنا أعترف بذلك وأنت أقرب امرأة إلى قلبي هنا في بلاد الماكينات وأعترف أنك تقتربين من شغاف القلب. أنا لا أنكر، ما يؤلمني هو صراع الوطن في داخلي، صراع الهوية.

-صراع الهوية ؟؟

-لا أعرف كيف أشرح لك الأمر لكنك تعرفين شخصيتي ومبادئي.

-أعرف مبادئك جيدا، أنت رجل شهم طيب جدا متخلق.

-وأنت لا أنكر امرأة طيبة، ساعدتني كما لم تساعدني امرأة من قبل.

-وأمك أيضا؟

-اسمعي يا إيمي : الأم لا تدخل في التصنيف ولا في الترتيب. الأم في مرتبة الملائكة والجنة تحت أقدامها. اسمعي جيدا الأم سراج الحياة الذي إذا انطفأ نجلس منتظرين القيامة لعلها تنير ظلامنا الدامس.

-صدقت. صدقت. صدقت

-لقد كدت أفقد حياتي حين تدخلت ذات مرة في أثينا رأيت مجموعة شباب يعتدون على أم وولدها. أنقذت الأم وكدت أفقد حياتي حينها. ربما دعاء تلك الأم أنقذني.

-أنت رجل شهم يا ياسر.

-وأنت امرأة رائعة يا إيمي.

-عبارة جميلة أسمعها منك. لكني وددت سماع كلمة أخرى.

-إني رجل تخونني اللغة أحيانا رغم تمكني منها.

-تبا لك أيها الإفريقي الشمالي... وأطلقت ابتسامة غادرنا بعدها المقهى عبر الباص إلى مطعم في شارع فردريشتراسيه الفاخر ودفعت هي عني الثمن حتى استحيت من نفسي كيف تدفع لك امرأة ثمن وجبة وأي وجبة، 85 اورو. هي من دعاني، ولو كان الأمر بيدي لذهبنا إلى مطعم تركي نتناول

شاورمة ب 9 اورو. ماذا بوسع مغترب فعله، لا يليق به المقام أن يكون مبذرا، مجبر هو على الادخار.

غادرنا بعدها بعد لقاء ممتع لأول مرة بطعم رومنسي خالص بدأت أفكر فيه وأحلله مباشرة عند ركوبي الباص المتوجه إلى .kreusbergهل أنا حقا أنا.

من الصعب الدخول في علاقة حب وأنت قادم من وطن مدمر. أنت ذاتك مدمر، ثم هل نسيت مبادئك التي لا تحيد عنها؟ أنت رجل لا تسلك إلا طرق الحلال. أنت رجل ملتزم لا تشرب الخمر ولا تدخن ولا تخدع الآخرين ولا تقيم علاقة غير الزواج.

لكن أنت لا تعرف هل ستتزوج مع إيمي أم لا، أنت لم تسألها حتى عما بعد عبارات الإعجاب وكلمات الحب وتراتيل الرومانسية.

هل سأسألها في الجلسة المقبلة؟ هي مسيحية قد لا توقن ما أعتقده البتة. بل قد لا تستوعب ما أفكر به. لكن لا بأس في سؤالها فأنت رجل صريح يا ياسر.

هكذا قضيت يومين أو ثلاثة أحاور نفسي وأجادلها حول الموضوع ثم أخلص في الأخير إلى ضرورة اتباع تفكيري حيث يقودني مادام مبنيا على أسس معينة.

ولو حدث لي ما حدث لشخص آخر ما تردد ثانية في القبول، نحن سكان العالم الثالث المغلوب على أمرنا نرى في

المرأة الأوربية المنقذة من جحيم العالم الثالث أو لنقل نرى فيها الحل لكل المشاكل.

لا تروق لي الفكرة البتة، لا أرى الحل إلا في نفسي، نفسي التي كانت شاهدة على كل إخفاقاتي وتعثراتي وتجاربي في الحياة منذ ولدت حتى هذه اللحظة حيث أجلس مقابلا بوابة برادنبورغ، نفسي فقط من يشعر بكل ما ذكرت ووحدها تنقذني بإذن الخالق من كل حاجز، من كل عائق يصادفني في الحياة. فكيف إذن يختصر البعض الحياة في امرأة أوروبية!!

وصارعني الهوى وصور لي سيوف الحياة خارج أغمادها تنتظرني في كل زاوية من زوايا العمر، هل ستقضي حياتك هكذا؟

إن الرجل الذي ليس في قلبه امرأة إنما هو جثة تنتظر الدفن لا أكثر. مهما حاول الرجال إخفاء الأمر مهما تشبثت النساء بالكبرياء الزائد، مهما اعتقد جنس أنه لا حاجة له للجنس الآخر. لا يمكن مطلقا التنكر للطبيعة، هذا هو صوتها. أيها الرجل الذي يعتقد أنه لا يحتاج لامرأة في حياته. أيتها المرأة التي تعتقد أن حياتها بدون رجل أفضل، أيها المخطئون تريثوا قليلا هونوا عليكم، اجلسوا قليلا في مقهى الحياة كفاكم كبرياء يفتك بكم كل حين.

قضيت أسبوعا في العمل تائها على غير عادتي، حتى زملائي لاحظوا ذلك علي بل إني صرت ثقيل الحركة من فرط التفكير

أحد زملائي سئم العمل إلى جانبي وعادة الألمان الجد في العمل، قرأت في إحدى الكتب ذات مرة أن الرجل يظل نشيطا مفكرا حتى إذا دخلت حياته امرأة أخذت كل شيء. خاطبني جورج بلهجة حادة حين فتحت له الموضوع: يا رجل ما بك؟ كأنك قادم من المدينة الفاضلة أو من صومعة في الصحراء، يا رجل هذه حياة لا نعيشها مرتين، يا رجل أنت محظوظ، طالبة طب يجب ألا يتعدى تفكيرك في الأمر ثانية واحدة. أنا هنا بدون مستوى علمي لو تتاح لي الفرصة أقبل دون تفكير.

-أنا مصاب يا جورج بحمى التفكير وأنت تعلم ذلك. حمى التفكير في كل شيء.

-يا رجل عش حياتك. أم أنك مازلت بنمط تفكير العالم الثالث. بئس التفكير هو.

-أرجوك يا جورج، أنا أخاف من القدر الذي قد يسلبها مني إن ألفتها، ماذا لو تغير تفكيرها يوما ما وقررت الرحيل عني بعد علاقة طويلة؟

-إن قررت الرحيل فلترحل.

-هذا هو مربط الفرس. أنا رجل مصاب بحمى التفكير وحمى الذاكرة التي قد تقتلني يوما ما. أنت تستهين بالأمر.

-أنت تدقق كثيرا في الأمور وهذا لا يؤهلك للعيش يا صديقي. هكذا ستقضي حياتك في التفكير ولن تعيش لحظة واحدة بل إن الحياة عندك لن تعرف الاستمرارية البتة.

-لا أحب يا عزيزي أن أبني بيتا دعائمه من رمل. أحب البيوت المبنية على أسس ثابتة تقاوم رياح الزمن، البيوت التي تبقى شامخة كسور الصين وحدائق بابل وجوامع الأستانة، أحب البيوت التي تبقى مضيئة بأرواح أهلها المنيرة كقناديل السيدة زينب.

-قل لي أنك قادم من المدينة الفاضلة، يا رجل عش حياتك ولا تكترث، لم تخلق لتنشر الفضيلة. أنا لا أفكر مثلك بتاتا. أنت نادر يا ياسر.

-صدقت. نادر نادر نادر.

ربما أنادر، أنا لا أبرئ نفسي لكن ربما أجد شخصا في العالم بل ربما هناك أناس حول العالم يفهمون ما أقول وما أفكر به وهذا هو سر الكتابة، الكتابة هي الخطاب الأخير الذي نوجهه للعالم بعد عجز ألسنتنا وقلوبنا.

كانت إيمي تتصل بي من حين لآخر وتدعوني لجلسات المقهى الشمالي مع ألبرت، ريتا وميشال، اعتذرت مرتين وعزمت على الحضور في الثالثة.

-هاه. حمدا للرب أنك لبيت الدعوة.

-صدقيني يا إيمي أني متعب جدا، من فوضى التفكير التي استعمرتني.

-يا عزيزي كن جميلا ترى الوجود جميلا. هل أقلقك أمر الجامعة؟ أم ثمة مشاكل في العمل؟

-لا هذا ولا ذاك. صراعات فكرية لا تفتأ تغادرني.

-عد الى جمالك الآسر، كفتى حالم متفائل مقبل على الحياة.

-قد عدت. قد عدت.

-ألا تقص علينا بقية رحلتك؟

-قلت لك أن اللغة تخونني، لا أجد شيئا غير الكتابة يؤنسني، الكتابة تحتضن أوجاع ذاكرتنا، تخفف علينا قليلا من الحمل الثقيل لذلك الكم الهائل من الذكريات التي توشك تدميرنا أو تسوقنا إلى القبر.

-قلت لي أنك زرت الكثير من المدن في طريقك

-نعم. استنبول-ازمير أثينا- تسالونيكا-كوسوفو-مونتينيغرو-سراييفو – بلغراد ثم برلين.

-أوووه رحلة جميلة جدا. أنت محظوظ.

-نعم أنا محظوظ. وفي داخلي هيستيريا من السخرية لو أبديتها لجننت.

لا يسعها إلا دفتر مذكراتي المسكين الذي يحمل كل شيء.

-16-

حين وصلت إلى اسطنبول أرشدوني إلى شخص يسمى "موح البوليس" شغله الشاغل بل مهنته هي تهريب البشر إلى اليونان، قصدت حي بيازيد الشهير والذي لا تحس فيه بطعم الغربة كون أغلب سكانه جزائريون ومغاربة. مقهى هناك بطابع مغاربي، طاولات جد عادية وقمامة بقربه يوحي بأنك في مقهى جزائري خالص. دخلته وعيناي تسعان المكان، تقدمت إلى النادل.

-سيدي. هل أجد هنا موح البوليس؟

-عادته التواجد هنا. لكنه سيعود غدا من أزمير.

-حسنا أعود غدا بإذن الله.

-ومن أرسلك اليه؟

-لا أحد. أصدقائي أخبروني عنه.

-حسنا أرجع غدا.

خرجت وتحسست المكان وأحاديث الناس فيه. حديثهم كله عن الحرقة والطريق والمستجدات. سمعت أحدهم يقول لصاحبه أن آخر فوج ذهب منذ ثلاثة أيام إلى أزمير.

وبقيت أتجول قرب المقهى، أسترق السمع من الأشخاص الواقفين هناك، عرفت إثرها أن هناك ثمن ندفعه وهناك فترة انتظار هنا وفترة انتظار أخرى في أزمير قبل الانطلاق وأن الرحلة

عبر البحر تتطلب توفر ظروف معينة مثل الجو والحراسة على السواحل ووو

عدت في الغد إلى المقهى، أشار إلي النادل أن موح البوليس هناك في الزاوية، وجدته مع شخص يتحادثان موضوعا مهما بالتأكيد. تقدمت منهما وألقيت السلام.

-وعليكم السلام. مرحبا.

-أنت هو موح البوليس. أحتاجك في أمر

-لدي حديث مع هذا الشخص، انتظرني لدقائق.

أكمل حديثه وجاء إلي، كان رجلا في الأربعينيات من العمر، طويل القامة، أصلع قليلا وقوي البنية يتقن عدة لغات مثل التركية واليونانية والانجليزية ولديه خبرة طويلة في تهريب البشر ومعرفة كبيرة بالمناطق وحدود البلدان والأجواء. سألت نفسي لماذا إذن يمكث هنا، أليس من الأفضل له العيش في أوربا. كما يقول المثل: "كيف يحرم الجزار نفسه اللحم."

-مرحبا أخونا. قل لي من أين أنت ومن أرسلك؟

-أنا ياسر جزائري طبعا أرشدني أصدقائي إليك. أريد الهجرة.

-من بالضبط أرسلك؟

-حدثوني فقط عنك وها قد جئت. وأرجو أن تساعدني.

-لا أعرف إن كان بإمكاني مساعدتك. اترك لي رقم هاتفك وسأرى.

تبين لي من كلامه أنه ارتاب مني، فنشاط تهريب البشر ممنوع قانونا وعقوبته قد تصل إلى السجن المؤبد، لذلك لم يثق بي وخالني رجل مخابرات.

قضيت أياما أخرى في بيازيد كل يوم أنتظر اتصاله وأحيانا أتردد على المقهى حتى أجلب انتباهه دون جدوى وحين سألته مرة عن الأمر أجابني بأنه علي الانتظار مدة أخرى وآخرون جاؤوا خلفي انطلقوا طبعا لأنهم مرسلون من أشخاص آخرين فوثق بهم.

وحين سئمت الوضع قررت التوجه إلى أزمير وحدي.

ماذا أقول لكم أيها السادة أزمير الجميلة المطلة على البحر، الأنيقة الفاتنة التي تحتضن كل قصص الجمال ولو كان الراتب يكفي للعيش لاخترت الاستقرار فيها. حجزت بأحد المراقد هناك كالعادة فلا قدرة لي على تكلفة الفنادق وأنا الفقير ابن الفقير.

ترددت هناك أيضا على المقاهي التي يتردد عليها المغاربة وتعنى أيضا بشؤون الهجرة، كنت هذه المرة أكثر جرأة وتقدمت إلى أحدهم الذي يبدو أنه المكلف بالتهريب.

-السلام عليكم. أريد الهجرة وهذا جوازي. ولا أحد أرسلني. فقط أريد الهجرة. جدوا لي مكانا بينكم.

-مرحبا أخونا. لكن هل أنت مستعد.

-طبعا مستعد وإلا فما الذي جاء بي إلى هنا.

-المبلغ يا رجل المبلغ.

-كم؟

-700-أورو

-أوووه 700 أورو. لا أملك هذا المبلغ.

-إذن جد لك طريقة أخرى. هذه هي الطريقة الوحيدة المتوفرة. ضف إلى ذلك نحن لا نأخذ هذا المبلغ وحدنا. لدينا أشخاص يؤمنون لنا الطريق. قد لا يتبقى لنا في الأخير غير 100 أورو.

-حسنا. شكرا لك. متى جمعت هذا المبلغ سأعيد الاتصال بك.

-حسنا. حظ موفق

ماذا افعل أيها السادة الكرام وأنا لم أجلب معي غير مبلغ 700اورو وقد استهلكت منها 150 لحد الآن. خفت في البداية أن تكون فكرتي مصيرها الفشل ولم أنم تلك الليلة حتى أني فكرت في العودة إلى الجزائر. وفي الغد قصدت إحدى المقاهي، طبعا مقاهي أخرى غير تلك التي تعنى بشؤون التهريب. صادفت شخصا مغربيا يشتغل هنا في أزمير والذي نصحني.

-يا صديقي بعد معرفتي مستواك ورصيدك الثقافي أعتقد أنه يمكنك إيجاد عمل هنا بسهولة، على الأقل عمل تعيش به لأيام وتحصل منه بعضا من المال.

-وكيف ذلك ؟

-سأسأل لك أصدقائي الأتراك ربما يساعدونك.

-ممتن لك أيها الكريم

وبالفعل عاد إلي في الغد وقد وجد لي عملا في مطعم قبلت به حتى أنقذ نفسي. عمل لا يليق بمهندس برمجيات لكنه قد ينقذني بل هو أفضل بكثير من حالي الآن وأنا بين البينين لا أنا هاجرت إلى الضفة الأخرى ولا أنا قررت العودة إلى الجزائر. قررت قبول العمل لعل الله يأتي بما هو خير.

عودت نفسي منذ الصغر على التوكل على الله وأنه بيده كل شيء وأن الفرج قادم دائما رغم الظروف والمعطيات التي قد توهننا وتضعفنا أحيانا فنحن بشر على كل حال. ثم إن الشخص الذي يفعل الخير ولا يظلم الآخرين أكيد لن يتخلى عنه الخالق. واستعنت أيضا بالدعاء فهو مفتاح الفرج.

التحقت بعملي بعد اتفاق ودي مع صاحب المطعم وفي عقلي تريثت خصوصا مع جمالية المكان، إنها أزمير يا سادة.

بعد حوالي شهر أخبرني أحد زبائن المطعم أن مهربا ماهرا يحضر مركبا للعبور إلى اليونان وينقصه فرد واحد. طلبت منه على الفور أن يوصلني إليه.

-كم ثمن الرحلة يا سيدي؟

400- أورو إن كنت مهتما.

ومتى الانطلاق؟

-غدا في الليل. كل الظروف مواتية.

عقدت العزم والتحقت بهم دون توديع صاحب المطعم ولا زملائي ولا ذلك المغربي نعيم. رحلت في هدوء تام. ومن طبعي لا أحب الوداع.

اجتمعنا في ذلك المقهى قبل المغرب بساعة مع المهرب دفعنا له الثمن وأعطانا بعض التوجيهات وقبيل الانطلاق جاء قائد الرحلة، إنه موح البوليس الذي رفضني في بيازيد وارتاب مني.

تأمل في قليلا ثم سألني عدة أسئلة شخصية.

-يا رجل أقسم لك بالله وبأسمائه العلى أني رجل فقير جدا ينوي الهجرة ولا علاقة لي بالمخابرات.

اطمأن قليلا قبل أن يسأل المهرب صاحب القارب إن كنت دفعت الثمن أم لا.

أدينا صلاة المغرب وضمخناها بالدعاء وانطلقنا على بركة الله في جو هادئ كأنه ليلة القدر.

كيف غامرت بهكذا رحلة. لا أعلم، هل الله من زرع في نفسي تلك الطمأنينة وذلك الأمل بالنجاح، بالتأكيد نعم. أنت لا تعلم ما معنى رحلة بحرية في دامس الظلماء وفي قارب بمحرك بسيط، هذا معناه أنك تلقي بنفسك للغرق ونسبة نجاحك هي 1 بالمائة رغم أن الجميع يتحدثون هنا عن نجاح الكثير من الرحلات ولا يذكرون لك إلا قليلا من المحاولات الفاشلة أو التي تم القبض عليها من طرف حراس السواحل المقابلة.

كان بعض زملائي الراحلين معي يتلون قرءانا وآخرون يغنون أغاني تتردد في الملاعب الجزائرية، أغاني تعبر عن الهروب من البلد وتتأسف لحال الشباب وأخرى تتغنى بالشهداء وأخرى تتأمل عالما أفضل هناك خلف المتوسط. إلا أنا كنت ساكتا وفي داخلي ألف دعاء أردده. تذكرت عائلتي وصباي وتذكرت كتاب قريتنا وتذكرت عصبية أبي وحنية أمي وعطف أختي الكبرى وأصدقائي الراحلين كل حيث استقر به المقام وتذكرت مسجد قريتنا العتيق الذي يعانق الزمن. واليوم الأول حين دخلت المدرسة بشق الأنفس.

-هل أنتم مستعدون ؟

-نعم أيها القائد

بسم الله وتوكلنا عليك يا الله.

هكذا انطلقنا كمن يلقي بنفسه من مكان عال لا يدري أين سيحط به المقام. كان القائد يستعمل البوصلة أحيانا لتحديد الوجهة. ماذا تنتظر من قارب بمحرك بسيط يشبه محرك الدراجة النارية. انتظر أجلك والسلام.

كان الكل عاجزا عن الكلام عدا القائد الذي كان يقول كل مرة عبارته المشهورة: "رانا قريب نلحقوا شباب ما بقاش ."

قبل تلك الرحلة كنا نعرف أن الخوف هو شعور، وفي تلك الرحلة صار شعورا وصوتا يسمع، للخوف صوت سمعته بأذني، يشبه صوت حفيف الأشجار في هوجاء الرياح ربما أو يشبه

أصوات الكائنات الفضائية. ومن حين لآخر تصادفنا أمواج عاتية، نقول عند كل موجة هذه هي نهايتنا، بل إن الجميع ينطق الشهادتين عند كل موجة. أنا حائر لحد هذه اللحظة كيف لم تتوقف قلوبنا عن النبض.

بعد حوالي ساعتين نطق القائد جملة أخرى غير جملته المعتادة.

-ها قد وصلنا أيها الرجال بقي لنا حوالي كيلومتر على الأكثر استعدوا.

تنفسنا الصعداء وحمدنا الله على السلامة كأننا لم نصدق أننا وصلنا بخير. وعلى الشاطئ هرع بعض الشبان فسجدوا سجود شكر على السلامة. هذه اللقطة لا تزال مرسومة في ذاكرتي ما حييت.

هل تعلمون أيها السادة ما معنى سجود شاب من شمال إفريقيا على الضفة الأخرى من المتوسط شاكرا الله على وصوله إلى هناك. تذكرت في تلك اللحظة كيف كان الجزائريون أسياد المتوسط في فترة زمنية ما على الأقل من 1550 إلى 1827 كيف كانت الدول العظمى تدفع الإتاوات حتى تسلم من بطش الأسطول الجزائري وجبروته. تذكرت زمانا كان شمال إفريقيا سيد المتوسط وقبله خلافة المسلمين سيدة العالم أجمع. سبحان الله كيف انقلبت الدنيا بهذا الشكل، كيف تحولنا إلى بلاد حلم كل مواطن فيها مغادرتها. سبحان الله.

بعد نزولنا عند الشاطئ اليوناني بحوالي ربع ساعة وبعد اعتقادنا بالوصول ونجونا حل بنا ما حل. جاءت خفر السواحل واقتادونا جميعا إلى مركز التحقيق وبعدها زجوا بنا في السجن. أي نهاية هذه يا الله.

وجدت نفسي بين أربع جدران مع مرافقين آخرين، وباءت محاولاتنا للحديث إلى الشرطة بالفشل. هذا هو الجحيم بذاته لا يسمح لك حتى بالكلام. سألونا عن هويتنا بعد أن رمينا جوازات السفر في البحر وصرنا بلا هوية. أوصانا القائد الذي هرب بعد دقائق قليلة من وصولنا إلى الشاطئ كأنه أحس بقدوم خفر السواحل أو ربما هذه هي الطريقة ونحن كنا نجهل ذلك. وجدنا أنفسنا نهاجر نحو السجن. أوصانا القائد بإنكار جنسيتنا الجزائرية وأن نقول لهم بأننا فلسطينيين هاربين من الحرب. يا رجل ما بك تهذي هكذا، ليس منطقيا البتة أن نقول لهم بأننا فلسطينيين ولهجتنا الجزائرية واضحة وضوح الشمس. جئنا إلى حتفنا للأسف

مكثت في السجن هناك في أثينا شهرا وثلاثة أيام أقاسي الوحدة وحبيسا لذكرياتي ومعاتبا لنفسي أحيانا. ما كان لي أن أسلك هذا الطريق وقبل النوم كل ليلة أدثر نفسي بكلام جميل كما أفعل دائما: "غدا سيكون أجمل بإذن الله ". والغريب أن أغلب الأيام إن لم أقل جلها لم تكن جميلة. أنا فقط متفائل ولا أمل البتة من التفاؤل حتى يفرج الله كل كرب وكل عسر.

حتى جاء اليوم الموعود حين أطل علينا حارس الزنزانة: "أيكم يتقن الفرنسية؟"

-"أنا". أجبته بصوت عال.

-تعال معي. هيا.

وحين وصلت إلى المكتب وجدت أناسا أفارقة هناك عجزوا عن التحدث معهم، طبعا طلبوا مني أن أترجم لهم من الفرنسية إلى الانجليزية. وهكذا صرت مترجما لهم حتى كونت صداقة مع أعوان السجن. وصرت أتحدث معهم في مواضيع شتى في الحياة. قالوا لي أن مترجما كان يعمل معهم هاجر إلى سويسرا. هذا منطقي لا أحد يرضى بقضاء حياته في السجن حتى ولو كان موظفا به.

وحين قصصت لهم معاناتي بعد تخرجي من الجامعة بهتوا وسكنوا كأن على رؤوسهم الطير وضمني أحدهم إلى صدره محاولا التخفيف عني.

-لست يائسا من الفرج أيها الرفيق ولست فاقدا للأمل. مازال عندي أمل في الوصول إلى ما أبتغي.

-ليتني أستطيع مساعدتك وإنقاذك. اعذرني يا صديقي.

-لك سبعون عذر أيها الرفيق.

جاء الفرج ذات أربعاء على الرابعة مساءا حين ناداني موظف السجن ايرازيس، هكذا اسمه، الرفيق ايرازيس. زملائي في

السجن باركوا لي خروجي وفي نفس الوقت لمحت في عيونهم نظرة شك في أنني لم أساعدهم وليتني استطعت ذلك.

-صدقوني أيها الرفاق لو استطعت إخراجكم لفعلت وهذه صدفة لا أكثر. أقسم أني عاجز عن فعل شيء. لقد دافعت عنكم ووضحت للمحامي كل شيء. أرجوكم سامحوني.

خرجت بعد استلامي أغراضي، هاتفي ونقودي وأعطوني 100 أورو منحة السجن غير المستحق. أردت معانقة ايرازيس ولم أقدر، سيقع في حرج أمام زملائه وأمام المسؤولين الذين قد يتهمونه بالتواطؤ. رغبت في معانقته أيها السادة بشدة، ولم أجد غير يدي لوحت بها له في هدوء كطفل صغير وعيني تقول له: "عساني أراك يوما. الوداع يا ايرازيس"

على الرابعة مساءا وجدت نفسي في شوارع أثينا مهد الإغريق وفي ثناياها أبصرت سقراط مع الرواقيين وأفلاطون وجمهوريته، أرسطو ومنطقه. رأيت سقراط والآخرين يتجولون في هدوء. في أثينا ترى أرواح الفلاسفة والمتمنطقين تتجول وترى معبد البارثينون شامخا كالجبال التي لا تهزها الرياح.

قضيت ليلتي الأولى في أثينا وأثينا ليست هدفي، أثينا طريق أمر منه لا أكثر، رغبت في استكشافها ولكن نقودي لا تسمح لي بذلك، ولكن جيبي لا يستطيع. لو بوسعي لجلت هذا العالم بأسره. لنا الله يا صديقي لنا الله.

لم أمكث بأثينا سوى ثلاثة أيام محاولا قدر المستطاع تقصير زمن رحلتي، والوجهة بعدها كانت تسالونيكا المدينة الثانية في اليونان، هي الأخرى واسعة الأرجاء وفيها من الآثار ما فيها، يا أيها الإغريق أي حضارة خلفتكم وراءكم سيبقى العالم مدينا لكم بكل شيء.

وجدت في تسالونيكا ثلاثة أشخاص، جزائريان ومغربي. جلست معهم لساعات في مقهى قديم، كل وحكايته. أدهشني ذلك المغربي حين قالي لي أنه يخوض تجربة الهجرة للمرة الثالثة، قبضوا عليه مرتين من قبل، مرة في سواحل اسبانيا ومرة في بلغاريا. كان يقص حكايته التي بدت لي تصلح كرواية أنموذجية عن الهجرة أو الحرقة بالاصطلاح الصحيح. أعجبني فيه الأمل في النجاح.

-سأنجح يا صديقي سأنجح. أنا لا خيار لي: إما أن أنجح أو أنجح.

-بمثلك تقوم الدنيا أيها الجار. إني أرى فيك تشيغيفارا العصر.

الآخران اللذان كانا معنا يخوضان التجربة للمرة الأولى. جاؤوا عن طريق موح البوليس وتبين لي فيما بعد أن الشبكة كلها ملك لموح البوليس وأنه كما توقعت لا يتعامل إلا مع من يثق بأنهم ليسوا أفراد مخابرات.

لا أحد يعرف الطريق، كلنا نجرب تاركين للحظ الحكم في الأخير بل لله.

الطريق طريقان إما إلى بلغاريا وإما إلى مقدونيا.

لم نحصل على معلومات كثيرة حول الطريق وبقيت المسألة مسألة اختيار وفقط، كلا الطريقين محفوف بالمخاطر، جرب حظك واترك المسألة لله وما خاب من استعان بالله.

خلاصة الأمر وبعد يومين من التشاور اختار كل وجهته.

اخترت أنا وأحد الجزائريين طريق مقدونيا بعد صلاة استخارة، ارتاح قلبي لهذه الطريق، عقدنا العزم، حزمنا الحقائب توكلنا على الله وانطلقنا.

بين مقدونيا واليونان محتشد لاجئين يسمى "ايدوميني"، لم نشأ الاقتراب منه حتى نتجنب مشاكل، ايدوميني منطقة مشبوهة ولها صدى إعلامي فكل الأنظار متجهة نحوها.

كم سنمشي حتى نصل إلى هناك. رحلة كبيرة تنتظرنا بل إن الجهاد العظيم قد بدأ من هنا.

لك تصور المسيرة إلى سكوبيه العاصمة المقدونية، لماذا أصر على أن المسيرة الكبرى تبدأ الآن، لأن رجلاي هي من تتحمل كل شيء ابتداء من هاته اللحظة، أنت شخص خارج عن القانون، جواز سفري رميته هناك في البحر في رحلة أزمير أثينا، لا باص ولا قطار ولا ميترو، أي خطأ ولو كان بسيطا سيكلفك

غاليا، ستجد نفسك في السجن من جديد وربما تقتل ولا أحد سيعرف وربما ستعاد إلى بلدك من جديد ويذهب كل ما فعلت سدى، إني لا أريد ذهاب رحلتي من أزمير إلى اليونان سدى، لقد كانت رحلة عظيمة، كانت موعدا مع القدر.

قليل من الزاد قد لا يكفي، لرحلة كهذه، قدرنا الرحلة كما أشار إلينا أحد الذين سألناهم بمسيرة 400 كلم، ربما مسيرة شهر، كم يلزمك من الزاد؟ اعتمدت منذ بداية رحلتي على التمر المعجون، التمر خير الزاد وبيت لا تمر فيه أهله جياع، التمر المعجون هو النصيحة المتوارثة وفعليا حصانة ضد الجوع.

مررت أنا ورفيقي بعدة قرى، وقبل الانطلاق صارحنا بعضنا البعض بخصوص النقود وكيفية التصريف، لابد أن لا نتجنب طرق المدن الكبرى حتى لا نصادف قوات الأمن، القرى الصغيرة تليق بنا كما أن أهلها في الغالب طيبون لا يرفضون المساعدة خاصة إذا تعلق الأمر بالأكل.

نمشي طوال اليوم وإذا حل الليل جنحنا إلى قرية ما نلتمس أكلا ومبيتا ولو قرب دير، ونسأل كل مرة عن الطريق وكم تبقى لنا. لحسن حظنا أننا لم نضل السبيل، كم كانت بعض القرى طيبة، كم كان أهلها في غاية من الجمال. عجوز في السبعين تمسح على رأسينا وتتحدث إلينا وتقرأ تراتيل ما، لم أفهم اللغة التي كانت تتحدث بها لكني أحسستها بكل جوارحي، إنها تشبه أمي كثيرا كثيرا وصوتها ليس بغريب عني بالمرة، أحسست

كلماتها المأثرة. كانت تمسح على رأسينا مشفقة على حالنا كما يبدو. في تلك اللحظة بالذات خاطرني التساؤل: ماذا لو كانت أمي هنا؟ في تلك اللحظة جالسني الندم لساعات، ما الذي جاء بي عبر هذه الطريق؟

وكانت لنا قصص كثيرة في مسيرتنا عبر تلك القرى وأقدامنا التي تورمت وتشققت من كثرة المشي ومن الدروب الوعرة التي سلكناها بحكم أننا لا نعرف الطرق.

كان شهرا مليئا بالمغامرة بالمعاناة أيضا، معاناة عظيمة حتى أن صديقي الذي رافقني صارحني بعبارة مؤثرة: "لقد ندمت يا ياسر على قدومي، ندمت ندما شديدا"

-ويحك هل تريد العودة؟

-يا رجل. ما بك؟ كيف أعود؟ أنا أعبر فقط عن شعور يخالجني.

عشرون يوما كانت كافية للوصول إلى العاصمة سكوبيه، من ايجابيات بعض الدول الأوربية أن لا أحد يهتم لأمرك، لا قوات الشرطة ولا الأشخاص المارين، فقط كن مؤدبا.

حين استفسرنا عن الطريق إلى كوسوفو وجدنا إجابة واحدة: الطريق سهلة ومختصرة، إما عن طريق القطار من سكوبيه الى بريشتينا أو بالباص والطريق نفسه، تذكرة القطار أغلى من تذكرة الباص، اخترنا الباص لأنه الرقابة تكون منعدمة تقريبا فيه وأضمن للسلامة.

تذكرة ب 25 يورو ثمن مناسب جدا، هي ست ساعات دخل الباص محطة العاصمة بريشيتنا وفي طريقنا تأملنا إبداع الخالق في كوسوفو بلاد الإسلام والجمال.

-هووه وصلنا الى بلد مسلم وجميل. صاح رفيقي وكأنه استعاد عافيته من جديد أو كمن شفي من حمى أصابته.

-لا تقل لي إنك تريد الاستقرار هنا؟

-ولم لا. هذا بلد جميل ومسلم

-أظنك تمزح يا رجل.

-صدقني يا ياسر، سأبحث جيدا في الفكرة و أظنني سأبقى هنا.

-كما تشاء كما تشاء.

ظننته يمزح في البداية مع أني تعودت عليه كشخص لا يمزح إلا نادرا. أعجبته كوسوفو ولا أحد ينكر أن كوسوفو بلاد ساحرة آسرة، لكن هدفي لا يزال بعيدا. يمكن القول أني في منتصف الطريق

مكثنا ثلاثة أيام نتجول في بريشتينا الجميلة، وكل شبر من أرض كوسوفو يحكي قصة أبطال أشاوس ذادوا عن أرضهم وعرضهم حتى تحرروا من بطش الصرب اليوغسلاف.

كيف سأعود إلى نفسي الآن بعد التعود على شريك طوال هذه المدة من الرحلة، من الصعب أن تتعود على رفيق في

الطريق ثم يتخلى عنك لتجد نفسك من جديد لوحدك برغمك.

هذا ما لا أحبه في البشر، لكنه لن يثني من عزيمتي، لقد انطلقت في البداية وحدي، ولا بأس أن أعود إلى أصلي، كان أحد أساتذتي يقول لي "أنت كأبي ذر الغفاري تمشي وحدك وتموت وحدك وتبعث وحدك". بعض الأكلات الكوسوفية أعادت لي طعم الحياة من جديد كمحارب يستريح.

جهزت حقيبتي من جديد والوجهة إلى البوسنة.

-الوداع أيها الرفيق، أطيب مناي لك سائلا المولى أن يتغمدك برفقه. ولا تنسى أن تسمي ابنك من زوجتك الكوسوفية باسمي.

-الوداع يا صديقي سأسميه ياسر عسى الله أن ييسر حياتنا.

عانقته مطولا ثم انصرفت.

حين سألت عن الطريق الى مونتينيغرو تبين لي أن لا إمكانية في السفر عبر القطار أو عبر الباص. الحل مشيا إذن.

تلك الجبال بين كوسوفو ومونتينيغرو عالية جدا وسفوحها وعرة في جانب وسهلة في جانب آخر، في قرية صغيرة هناك قرب الجبل وجدت شابا آخر يريد العبور، كيف عرفته؟ ملامح وجهه لا صلة لها بالكوسوفيين البتة، أسمر بعينين سوداوين ولباس مختلف تماما عن لباس أهل المنطقة، لباس تعودت على رأيته في بلدي.

تقدمت منه دون خجل، حييته بالإنجليزية فأجابني بلهجة جزائرية خالصة، عرفت بعدها أنه من مدينة وهران، رفيق سفر جديد نؤنس بعضنا، نخفف عن بعضنا آلام الطريق وندثر أحلامنا معا كل ليلة حتى يطلع فجر جديد.

غذائي طوال هذه المدة تمر معجون وماء ووجبة واحدة في اليوم، آلام في معدتي كل صباح والمشكلة الكبرى هي أن القرى هنا بعيدة عن الطريق ولا مناص من مواصلة المسير، لكم أن تتصوروا أيها السادة كيف ننام على سفح الجبل وكل ليلة نقول هذا حتفنا، كل ليلة نقول اليوم ستنقض علينا وحوش البرية تفترسنا وبداية فصل الشتاء حيث بدأ البرد يبسط سلطانه على المنطقة. يا أيها البرد رفقا بنا.

تعودت على المشي حتى أن قدماي لم تعد تؤلمني رغم تورمها وتشققها، شيئا فشيئا اقتربنا من المنطقة الحدودية ولم يتبق لنا غير كيلومتر واحد.

قمنا باستطلاع الوضع قبل العبور لعلنا نقع في مصيدة قوات الأمن الحدودية.

يبدو أن هذا اليوم يوم عيد في مونتينيغرو، لا أثر لرجال الأمن، يمكننا العبور الآن بكل هدوء بعد مسيرة شهر متعبة منهكة، هنا بالضبط ندمت ندما شديدا على رحلتي هذه. لم أصل بخير البتة، حتى عزمت على الاستقرار في البوسنة حتى

أستعيد عافيتي ولن أقوم بخطوة أخرى قبل أن تشفى قدماي وتستريح معدتي من هذه الآلام.

الجبل الأسود بلد صغير جدا، وصلنا إلى العاصمة بودكوريكا في ظرف يومين وبها جلست في مرقد أسبوعا كاملا نائما بل قل ميتا من التعب والإرهاق.

وحين قمت وجدت رفيقي يرتشف قهوة، مباشرة شاركته قهوته وخرجت بعدها ملتهما كل ما وجدته أمامي من مأكولات، ظننت أن رفيقي لم ينم كثيرا لكنه صارحني بأنه نام ستة أيام.

لم أكمل ما عزمت عليه لأن الباص من بودكوريكا إلى سراييفو متاح وغير مراقب. صديقي عارض الفكرة.

-يا كمال نكمل إلى سراييفو ونستريح هناك كما نشاء، الباص إلى هناك مسيرة 4 ساعات لا أكثر والبوسنة بلد آمن جدا وشعبها مسالم.

-وماذا لو قبضوا علينا في محطة النزول هناك في سراييفو ؟

-هذا لا يحدث البتة يا كمال، المراقبة للصاعدين فقط.

-لنتوكل على الله ونواصل.

أهلا سراييفو، أهلا يا قدس أوربا.

حين وصلنا إلى سراييفو اعتقدنا أننا قطعنا شوطا كبيرا في مسيرتنا نحو الشمال. فكان لا بد لنا من استراحة نستعيد بها عنفوان أنفسنا ونعيد ترتيب ما خرب في أدراج أرواحنا. بيت

استأجرناه من عجوز كبير في السن، بيت في حي جانبي في سراييفو، هذه المدينة الآسرة الهادئة، بناء عتيق صامد حدائق خضراء وبحيرة قرب المدينة. مآذن تشبه مآذن الشام والناس طيبون رغم سيل التطور الزاحف نحوهم. إنها بحق قدس أوربا.

لم يكن ذلك الشيخ ليأجر لنا البيت لولا أننا كذبنا عليه وقلنا له أننا مستكشفون وأن جوازاتنا قد ضاعت منا في الطريق. وحين وجدني في صلاة الجمعة إلى جانبه اطمأن لي. كان مؤسفا لي أن أكذب لكنني اضطررت لذلك من فرط التعب والإرهاق تصور يا صديقي أنك تقطع آلاف الكيلومترات دون توقف بلا هوادة، ليس بالأمر السهل طبعا.

لم نحدد كم سنمكث هنا في هذه المدينة الأخاذة، أحسسنا كأنها تجذبنا إليها، كأن طاولات المقاهي فيها ترفض أن نغادرها ومما زاد تعلقنا بها هو طيبة شعبها المضياف، طيبة نادرا ما تجدها في بلد أوربي. وكل جدار في سراييفو يحكي قصة من قصص اليوغسلاف، يا أيها اليوغسلاف ويلكم ماذا فعلتم بشعوب مسالمة.

نساء هذه البلاد فاتنات جدا، من الصعب أن تجد مثلهن في هذا العالم، مسلمات قانتات جميلات عابدات متواضعات رغم جمالهن الذي لا يقاوم، طيبات كطيبة أهل البلد.

وكل وجباتنا تقريبا كانت تحضرها لنا عجائز في الحي واستكشفنا الطبيعة التي لم أرى مثلها من قبل في بلاد، هذه

جنة في الأرض، هذه المدينة التي كنت أسمع في إذاعة مونتيكارلو في التسعينات أن الصرب يقصفونها كل مرة، سنوات التسعينات حيث كان لا صوت يعلو فوق صوت المذياع حيت يشعله أبي كل صباح ويراقص قهوته، آه كم اشتاق أيام أبي. وكيف كان يبدي تعاطفه معهم كل يوم وحين اسأله يقول لي: "يا بني إنهم مسلمون مثلنا مظطهدون هناك ."

سبحان من جمل سراييفو بمساجدها وسبحان من طيب أهلها.

طاب لنا المقام وتعودنا على الحياة هنا وألفنا الناس حولنا، حتى صار كمال رفيقي يتعامل معهم بطلاقة وتعلمنا كلمات وجمل باللغة البوسنية وعلمتهم قليلا من الإنجليزية. طاب لنا المقام وارتحنا راحة تامة من ذلك التعب العظيم الذي حل بنا في رحلتنا.

بعد أن ارتحت من تعب المسيرة عاد إلي التفكير من جديد في مواصلة الطريق، لقد بقي أمامي كرواتيا وسلوفينيا حتى أصل إلى النمسا. لا بأس سنسير معا والرفيق كمال سنأنس بعضنا سنهون على بعضنا البعض آلام الطريق.

ومقولة أستاذي لا تغادرني البتة:" أنت يا ياسر كأبي ذر تمشي وحدك وتبعث وحدك وتحاسب وحدك". هذه المقولة لا تغادرني البتة كلما سرت في طريق من طرق الحياة أو طرق الأرض.

وحين عاد كمال في المساء بعد أن لعب مباراة كرة قدم مع شباب في ملعب جواري فتحت له موضوع مواصلة الطريق.

-سأبقى هنا يا ياسر. طاب لي المقام.

-أوووووه. كيف ذلك؟ لماذا؟

-هذا بلد جميل وأناسه طيبون ونساؤه جميلات، سأتزوج وأبقى هنا.

-ألم نتفق على المسير مع بعض حتى النهاية ؟ألم تعاهدني ؟

-نعم، لكنني غير قادر على المواصلة وطاب لي المقام هنا لقد تعودت على الناس هنا.

اذهب إن شئت وفقك الله.

غضبت غضبا شديدا، حملت وسادتي وانتقلت إلى غرفة أخرى ولم أنم الليلة من شدة الغضب، حاولت النوم في الصباح دون جدوى، ثم تذكرت أنه في الأسبوع الأخير صار لا يجلس معي كثيرا ولا يعود باكرا إلى المنزل، مؤكد أنه وجد ضالته، مؤكد أنه وجد امرأة يتزوجها ليبقى هنا.

ومر بغرفتي حوالي العاشرة صباحا.

-صباح الخير ياسر، أريد توضيح أمر مهم، أنا سأبقى هنا وأنت إن شئت اذهب، لا أحد مجبر على الآخر، كل وطريقه كل ومشروعه.

-أوكي أغلق الباب.

كانت هذه آخر عبارة قلتها له، حملت حقيبتي على ظهري وخرجت دون حتى أن أودع الجيران والعجائز اللواتي أطعمننا، ولم أودع سوى المسجد الكبير هناك وحين خرجت من المسجد وجدته في ساحة نسيت اسمها مع امرأة شقراء. آه هذا ما أبقاه هنا. أتمنى أن لا يندم.

بت الليلة تلك في مرقد وحين استيقظت وجدت قدمي تسيل من الدم هو جرح لم يندمل ومن موجة غضب في الليل ركلت طاولة كانت بجانبي. كيف يتغير البشر هكذا، كيف يمحون عهدا قطعوه أمام الله، كيف أعيش أنا في عالم فظيع كهذا. ما أقلقني ليس أن أبقى لوحدي إنما عهده الذي قطعه كأن عقلي كمبيوتر يبرمج شيئا في نظامه فتصعب إزالته، كيف أعود إلى نسختي السابقة، نسخة الوحيدة، أسير وحدي وحدي وحدي.

مسحت ذلك الدم من على رجلي وكلي أمل ألا يكون جرحا غائرا بعد أن أعطاني أحدهم مضمدا، إفريقي آخر وجدته في المرقد وهذه المرة لن يرافقني أحد، سأسير لوحدي. استقصيت عن الطريق إلى كرواتيا جيدا فوجدته طويلا نوعا ما وقال لي ذلك الإفريقي وهو من الكاميرون بالمناسبة أن هناك طريقا أخرى.

-يمكنك الذهاب إلى بلغراد وفيها تشتري جوازا صربيا مزورا تذهب به إلى ألمانيا.

-أوووه بهذه الطريقة، أليست خطرا ؟

-أنا كما ترى أسود البشرة وسأجربها فما بالك أنت أبيض ولا تختلف كثيرا عن الصرب. جربها ستنجح معك. وان شئت تعال نترافق معا إلى بلغراد.

-عفوا لا يمكنني أن أقرر، أحتاج لفترة تفكير.

هذه الطريقة فيها من الخطر ما فيها ومن المجازفة ما فيها، ماذا لو اكتشفوا أمري؟ مؤكد أني سأقضي سنوات طويلة في السجن، إنه التزوير يا سادة.

بعد أن فكرت مليا اتخذت قرارا بالمسير مشيا، قرار اتخذته رغم تعبي من المشي، فحزمت حقيبتي وجددت العهد مع المشي وانطلقت، كيلومترين بالضبط أحسست بآلام في القدم المصابة ودم يسيل، يا إلهي ما هذا الحظ التعيس.

عدت إلى المرقد بشق الأنفس وفي الغد توجهت إلى جمعية خيرية ضمدوا جرحي بعناية ونصحوني بعدم المشي كثيرا وإلا قد يتسبب لي الجرح في مضاعفات خطيرة. ماذا لو يصبح سرطانا؟ ماذا لو قطعوا رجلي؟ ماذا؟ ماذا؟ أسئلة كثيرة راودتني وكبحت جماح رغبتي في مواصلة المسير. وهل سأبقى هنا؟

لم تبق لي غير المجازفة وما معنى الحياة التي نمضيها كأصنام قابعين في أماكننا، فمن يتهيب صعود الجبال يعش أبد الدهر بين الحفر. ارتحت ليومين وبعدها الوجهة إلى بلغراد.

كان علي أن أتفقد نقودي جيدا، كم بقي معي وهل سيكفيني في بقية الرحلة. 350 يورو هذا جميل بل مذهل بعد كل هذه الرحلة الطويلة، التمر المعجون وأهل القرى الطيبون ساعدتني كثيرا في اقتصاد المصاريف، كم سأنفق في قادم الأيام، الله أعلم. كم بقي لي من المسير الله أعلم، ضف إلى ذلك أن لا أحد سيهتم لحالك في أوربا، سراييفو هي آخر نقطة للضوء، ضوء الاهتمام، يا صديقي في أوربا لا أحد يهتم لحالك، كل مهتم بنفسه.

اشتريت تذكرة من سراييفو إلى بلغراد وكل دعواتي ألا يتم اكتشاف أمري من طرف الشرطة ورجلي مضمدة بضماد أبيض أمشي أعرجا وحقيبتي على الظهر، وزني انخفض، وصرت ذلك الكائن النحيل بعد أن كنت رياضي القوام، ممتلئ الجسم بتقاسيم الحيوية والنشاط، وجهي فقد ضياءه لقلة النوم والأكل لم أستحم طوال الأربعة أشهر سوى مرتين، صلاتي أضعتها بعد أن كنت المثابر الطائع العابد. هذه النقطة وحدها كافية لتجعلك تندم على هذه الرحلة.

حين جلست على مقعد خشبي أنتظر الباص الذي سيقلنا إلى بلغراد بدأ العتاب: ما دهاك يا ياسر وما الذي ساقك إلى

هكذا حياة، إلى مسيرة فقدت فيها جسدك وروحك وصلاتك نعم وصلاتك بعد أن كنت الشاب العابد، أهلي لا يعلمون حتى هذه الساعة هل أنا حي أم ميت، آخر عهد لي بهم كان حين وطئت قدماي اسطنبول، ومن حينها انقطع كل شيء وحتى ولو كلمتهم كنت سأكذب عليهم، سأخفي عنهم كل حقيقة، إذن الصمت قد دفع عني كل ذنب وكم أنا بحاجة إلى دعاء يرافقني وأمي الشخص الوحيد الذي أنا متأكد أنه يتذكرني في كل صلاة.

كان أفراد الشرطة يقومون بالإجراء الروتيني في مراقبة الداخلين إلى منطقة الركوب، لم أنتبه لهم إلا بعد أن وصلت إلى الباب وأنا أمشي أعرجا بضمادة على قدمي، أشار إلي الشرطي بالمرور بل إنه منحني أولوية المرور بعد أن أوقف الباقين، وعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا. ماذا لو كنت سالما؟ هل سأمر دون مراقبة؟ بالتأكيد إصابة قدمي أنقذتني من فخ الشرطة. إن الأقدار أحيانا تبتسم لنا.

كان سائق الباص عصبيا ذكرني بالسائقين في بلدي، لكنه لا يتكلم إلا ليصرخ في وجه أحدهم عكس السائقين في بلدي الذين يقصون عليك تاريخ العالم منذ آدم في رحلة واحدة.

سبعة ساعات من سراييفو إلى بلغراد أوصلتني منهكا كأني مشيت مئات الكيلومترات وحين نزلت بحث مباشرة عن جمعية مريم العذراء وهي جمعية منتشرة في أنحاء أوربا قاطبة تقدم

مساعدات إنسانية، مظهري بضمادة بيضاء على رجلي العرجاء يدعو إلى الشفقة وهذه أول مرة أحس نفسي مثيرا للشفقة. عالجوني في هذه الجمعية وقدموا لي وجبات وحين عرفوا أني سأواصل الطريق أعطتني مديرة الجمعية مبلغ 120 أورو كمساعدة إنسانية عادة ما يتم منحها للمرضى بعد أن أخذت صورة عني وبصماتي، من عادة جمعية مريم العذراء أن لا تقدم المساعدات المالية إلا للأشخاص المعروفين، أما أنا فدون هوية، إن جوازي رميته هناك في البحر المتوسط. هاهو القدر يبتسم لي مرة أخرى.

ولكي أجد أين تباع الجوازات المزورة قصدت بعض المقاهي القديمة، دون جدوى، ثم قصدت مكاتب الأعمال، جولة يوم شاق دون جدوى، وليتني استمتعت باكتشاف بلغراد، تجولت ولم أكتشفها، لا طاقة لي يا أمي لا طاقة لي.

قصدت في الغد منطقة أخرى وفيها وجدت ضالتي، مكتب في زاوية بعيدة، رفض في البداية التعامل معي حتى مكثت عنده أربع ساعات أترجاه وأقسم له أني لست من أفراد المخابرات، إنه التزوير. وأخيرا وافق على طلبي، أخذ لي صورة فوتوغرافية وضرب لي موعدا بعد ثلاثة أيام.

ثلاثة أيام قضيتها نائما لا أنهض إلا للأكل.

-هذا هو جوازك، أنت الآن مواطن صربي اسمك ميروسلاف راديفيتش، احفظ المعلومات المدونة فيه عن ظهر قلب تحسبا لأي طارئ، تاريخ ميلادك، مكان ميلادك.

-وكم الثمن؟

120-يورو.

-امم كم سيتبقى لي ؟ امممم حسنا اجعلها 100.

-لك ذلك بما أنك مصاب.

خرجت وألف علامة استفهام في عقلي. من أنا، هل أنا حقا أنا.

قد صار اسمي ميروسلاف راديفيتش هههههه

كيف سأتعود على هذا الاسم وأنا الذي سمتني أمي ياسر.

الجوازات المزورة في بلدان أخرى تباع ب 600 حتى 700 يورو، ما السر في أن هذا المتعامل باعه لي بـ 100؟ حسنا دعنا من هذه الأسئلة التي تعكر المزاج، إلى الأمام ليكن ما يكن.

لم أنتظر كثيرا بعد أن اشتريت الجواز، قل بعد أن أصبحت ميروسلاف، فقط قمت بتجميل لحيتي قليلا ومشطت شعري جيدا حتى لا أضع نفسي موضع شبهة.

-تذكرة الطائرة من بلغراد إلى برلين بكم يا سيدي؟

-بـ 165 يورو الآن وقد تنخفض في قادم الأيام. أجبتني موظفة وكالة الحجوزات.

حسنا، كم سيبقى معي؟، امم 160. سأنتظر أفضل لي.

وكان ما أردت فقد اشتريت تذكرة بـ 125 يورو بعد ثلاثة أيام.

هذه الطائرة الثالثة التي أركبها بعد طائرة الجزائر اسطنبول وطائرة الجزائر باريس، والذي ركب قاربا من أزمير إلى أثينا سيرى في الطائرة مركبة تقود إلى الجنة.

وها هي إصابتي على مستوى الرجل وضمادتها البيضاء تنقذني مرة أخرى من شرطة المطار، فلم يدققوا معي كثيرا ولم يضعوا الجواز في جهاز السكانير ومررت مرور الكرام. جلست في مقعدي بجانب زجاج النافذة كي أتأمل في السحب ومنظر المدن من أعلى ورحل الخوف من نفسي بعد أن سلمت أمري كله لله، ما أجمل هذه المرحلة التي يصل إليها الفرد فيسلم أمره كله لله، فلا يتخوف من أي شيء ولا يغيضه أي شيء، لا يتأسف لأي شيء ولا ينتظر بفرح وسرور كل شيء، كل شيء قدره الله. هكذا كنت في صباي قبل أن ابلغ سن الرشد وتعصف بي عواصف الشباب في الجزائر.

وداعا صربيا وداعا ذلك العالم مرحبا بعالم جديد، هذه الطائرة كانت بالنسبة لي نقطة التحول الكبرى في حياتي، إما أن أدخل ألمانيا نحو حياة جديدة وإما أن يمسكوا بي في مطار برلين ومنه إلى السجن ثم أعاد إلى الجزائر.

سبحان ربي وكلتك أمري فاختر لي ما تراه خيرا. مرحبا أيها العالم الجديد.

-17-

أحري برجل مثلي أن يخطئ بهكذا علاقة؟، ربما لا أخطئ لكني أخاف من القدر، وما المشكلة، هذه الفتاة جميلة ومثقفة وطيبة. حسنا سأبدأ لأرى أين سيصل بنا الطريق، ماذا سيخسر من لم يظفر يوما.

والحق هي امرأة آسرة، أترى كيف تهتم بي وبحالي، اهتمامها بالذات هو ما يجذبني إليها، لولا أنها تحبني ما اهتمت، ما الذي يجبر طالبة طب على الاهتمام برجل قادم من إفريقيا، لا مصلحة لها هذا مؤكد، لست ذا مال هذا أيضا مؤكد.

يناديني صوت من الداخل: "هو الحب، هو الحب هذا هو الحب بذاته، شعور نحو شخص ما مجرد من كل حسابات المال والمصلحة"

أقبلت عليها آملا أن لا تكون النهاية إلى طريق مسدود فصارت لقاءاتنا يومية، دعتني ذات يوم إلى ملهى ليلي اعتذرت فغيرت الوجهة إلى نادي موسيقى ليلي، تعجبت مني حين طلبت مشروب بيبسي ورفضت النبيذ.

-ألا تشرب النبيذ يا عزيزي، ألا يروق لك؟

- لم أشربه يوما ولن أشربه.

-لماذا، جلسة كهذه مع موسيقى رائعة تحلو بكأس من النبيذ الألماني الخالص.

-يا عزيزتي، لا أتناوله البتة. لنستمع إلى هذا العازف التركي وبعده عازف القانون.

-سأشتري لك يا ياسر كمانا وقانونا وعودا، ألم تكن عازفا ذات يوم.

-نعم يا إيمي وقد اعتزلت منذ زمن. ألا ترين أن حياتي سيمفونية

كنت كل مرة أعود إلى بيتي نادما على ذنب ما أرتكبه عند كل لقاء بيننا وفي الغد أعود أدراجي إلى ذنوب أخرى. فقد ألهمتني هذه المرأة عنفوان الشباب ومرحا لا مثيل له وسخاء منها لا نظير له، كيف تدفع عنك امرأة وجبات في أرقى المطاعم.

-أريدك بروحك معي يا ياس، أعشق روحك، روحك فتنتي أحاديثك هي حدائق قلبي الواسعة.

وحين أسألها لماذا تتصلين بي في كل وقت أكثر من اتصالك بعائلتك كانت تقول:" أنت عائلتي ". أي نعم. الأسر هنا لا تعرف ذلك التماسك كما في الأسر العربية والإسلامية.

-لا أريد أن أفارقك مطلقا يا عزيزي. يجب أن تكون دائما بجانبي. أنت لي.

-لكنك تحرجينني أحيانا يا إيمي

-قلت أنت لي وهذا يكفي

-وأنت لي أيضا. أحب روحك المرحة، اهتمامك اللامتناهي. تفكيرك الإيجابي دائما، تفكيرك البريء الخالي من الحسابات.

أنا لا أفهم في هذه العلاقات لذلك أتعامل معها بعفوية مطلقة ولا أتخذ حسابا لأي شيء، بل إني أحيانا أقوم بطقوس محرمة أتذكر ذلك بعد مدة ثم أراجع نفسي وأتوب إلى الله.

إيمي لم تبن هذه العلاقة على المصلحة ولا على المال، أنا رجل فقير ولا فائدة لها مني، هي طالبة طب وميسورة الحال. إذن لا شيء غير الحب يجعلها تتمسك بي.

وفي غمرة قصتي استرجعت ذكريات سابقة لأصدقائي، رياض زميلنا في الجامعة أقام علاقة مع مريم التي تدرس معنا أيضا ودامت أربع سنوات، كنت أخاف على رياض كما أخاف على نفسي، كان عفويا جدا، طاهر النفس. بعد كل ذلك الحب الذي كان بينهما قرر التقدم إلى والدها ذات صيف، وكانت المفاجأة، والد مريم يرفض رياض والسبب المال، رياض رجل فقير جدا، والد مريم رجل أعمال معروف في المدينة وفاسد أيضا، لا يعترف في حياته إلا بالمال لذلك سخر من رياض الشاب الفقير ورده خائبا بل توعده بالجحيم إذا فكر في الاقتراب من ابنته مجددا. وكثيرون مثل رياض في وطني، شيئا فشيئا يصبح المال هو السيد الحاكم.

المرأة في وطني صارت سلعة تباع للخاطب الأكثر مالا والفقير طبعا غير مرغوب فيه، يا إلهي ألا يعرفون أن الله هو الرزاق من فوق سبع سماوات، لقد صارت هذه القاعدة هي قاعدة الزواج بعد أن كانت الاستثناء.

عزيزي الأب عندما تزوج ابنتك بالرجل الأكثر مالا فقد بعتها، أرجوك افهمني لقد تحولت إلى سلعة تباع وتشترى، لقد ألقيت بها في الجحيم صدقني.

أعزائي الآباء الذين يختارون الخاطب الأكثر مالا أنتم تسيرون بهذا المجتمع إلى الهاوية سنتحول بعد سنوات إلى سلع ومنتوجات صدقوني، صدقوني: الرب الذي يخلق هو الذي يرزق وهو الذي يهدي. هو نفسه واحد أحد.

اختار أبو مريم لابنته بعد ذلك مباشرة ابن أحد أصدقائه رجال الأعمال وزوجها إياه مجبرة رغم رفضها وماذا يفعل الميت في يد غساله، رغم أني لمتها على ذلك، كان بإمكانها أن تصمد أمام صوت الحق. وحين التقت رياض بعد مرة اعتذرت منه لكنه صدها بابتسامة وجر حقيبته نحو الطاكسي ووجهته إلى المطار ثم إلى فرنسا وقال لها لآخر عبارة: "لي الله ."

-18-

اقتربت الدورة الربيعية للتسجيل في الجامعة، والوجهة دريسدن، طبعا لن أذهب وحدي فلي الرفيقة إيمي بها تحلو السفرية. رحلة جميلة قادتنا إلى هناك وأحاديث شيقة وغداء شهي وقهوة في مقهى شمال دريسدن بالقرب من الجامعة. بعد أن أتممنا إجراءات التسجيل التي لم تدم سوى نصف ساعة بفضل صديقتي التي سهلت لي كل شيء بمعرفتها بالإجراءات والوثائق. خرجنا بعدها إلى مطعم فخم حيث تناولنا غداء لذيذا جدا، أكلت حتى عجزت عن القيام، ودفعت هي كالعادة الثمن. هذه امرأة سخية جدا. ثم سرنا يدا بيد إلى حديقة هناك ليجمعنا جو رومنسي خالص، كان ذلك اليوم بالصدفة مشمسا رغم أن الشهر فيبراير وعادة فيبراير هنا الثلج والمطر.

-عندما نعود يا عزيزي ذكرني لنذهب إلى جامعة برلين نستفسر عن طريقة التحويل، قد أخبرونا من قبل أنه في الدورة الربيعية ممكن. لا تنس يا مهندس البرمجيات.

انخرطت مباشرة بعد حصولي على بطاقة الطالب في نادي المسرح في جامعة برلين وتشكلت فرقتنا المسرحية تشكيلا جديدا، الآن يمكنني التمثيل معهم، لقد صرت أتقن الألمانية جيدا، سأقوم بأدواري جيدا.

روسيل، ميشال، ألبرتو، إيميليانا، أنا وريتا. آه ينقصنا مارتن. ليته لم يذهب إلى هامبورغ فاتنة الشمال الأوربي. زرت المقر كعضو بعد أن كنت أزوره كمدعو فقط.

-19-

صرت سعيدا جدا وطاب لي المقام، ماذا أريد أكثر من هذا عمل جميل في مكتبة، مسجل في جامعة برلين، عضو في فرقة المسرح وامرأة جميلة إلى جانبي. أنا في النعيم يا أمي ما كنت لأحظى في بلدي بما أحظى به هنا.

لماذا لا يعانون من البطالة هنا، ذلك الشبح المرعب هناك في بلدي، الجامعة هنا مرتبطة بالاقتصاد ارتباطا وثيقا، هنا كل شيء محسوب مناصب العمل، الشعب المفتوحة في الجامعة، العدد. لا تجد أحدا بطالا هنا كن متيقنا.

حين قلت لأصدقائي هنا أني لم أجد عملا تفاجؤوا، ذهلوا للخبر.

-مهندس برمجيات لا تجد عملا؟؟

-نعم قضيت سنوات الجامعة رغم المشقة والظروف المزرية وجامعاتنا الكارثية. الجامعة في وطني عبارة عن مكان نقضي فيه فترة من المعاناة ثم نخرج لمعاناة أخرى حتى أني أعتقد أن الجامعة في الجزائر قرار سياسي وإلا كيف تفسر أنت العدد الكبير الذين ينجحون البكالوريا؟ أليست رغبة من النظام في الزج بهم في مستنقع آخر إلى أجل غير مسمى، فترة الشباب والمبادرة تتراوح بين الثامنة عشر والرابعة والعشرين، هنا بالذات قام النظام باعتماد الكوطة في البكالوريا لقتل روح المبادرة، ما معنى أن تصل النسبة إلى 70 بالمائة ثم يجدون أنفسهم في مستنقع لا

خروج منه إلا بعد سنوات وإذا خرجوا دخلوا في مستنقع آخر هو مستنقع البحث تسوية الخدمة الوطنية ثم البحث عن عمل ثم البحث عن سكن ثم عن زوجة ثم عن النفس. تبا لكم

في داخلي لم أكن مقتنعا بالجامعة، نجحت البكالوريا رغبة في التحدي ورغبة في إسعاد عائلتي، فرحة أمي لا توصف حين عدت ذات أربعاء صباحا وأخبرتها أني نجحت. كنت مترددا في اختيار الشعبة بين الطب وهندسة الحاسب ثم اخترت الثانية هروبا من مدة دراسة الطب التي تبدو طويلة جدا. وفي ظروف قاهرة قاومت الفقر والفاقة، فقر عائلتي دفعني للعمل في أوقات الفراغ وعطلة نهاية الأسبوع بكل ما في ذلك من مشقة.

وأنا في السنة الثانية فكرت مليا في التخلي عن مقاعد الدراسة والانضمام إلى صفوف الجيش ليس حبا في المهنة ولا حبا للوطن ولكن بسبب الفقر وهذا هو حال غالبية المنخرطين في صفوف الجيش، أبناء الفقراء الذي أغلقت في وجوههم أبواب العمل فلا يجدون سوى هذه الطريق. يا أسفي على وطني وعلى أبناء وطني. لم يتم قبولي بسبب المحسوبية، هل يمكنكم أن تتخيلوا ذلك؟

ثم واصلت الكفاح لثلاث سنوات أخرى بكل ما تحمله من معاناة: بيروقراطية الإدارة، الوجبات السيئة، الاكتظاظ، عنجهية المسؤولين، قلة المرافق، المحسوبية عند بعض الأساتذة والابتزاز، معاناة العمل الشاق وصعوبة التوفيق بينه وبين الدراسة.

ولم يكن يحلي تلك الأيام إلا أصدقاء كالإخوة هم بالنسبة لنا، كعائلة واحدة نتقاسم الحديث والرغيف والمعاناة ولا أنسى أبدا الغرفة التي جمعتنا، غرفة صغيرة واسعة بأهلها الطيبين

وأناس آخرون عرفناهم هناك، كم اشتقت لهم. لأرواحهم التحية ولقلوبهم السلام.

خمس سنوات مرت كأعوام بحلوها ومرها وأنا الآن أتذكرها، أتذكر كل شبر هناك جلست فيه، كل شبر تسكعت في أرجائه، كل زملائي وأصدقائي، أتذكرهم هنا في هاته البلاد الجميلة ونفسي تحن لجلسات هناك جمعتنا بأناس طيبين. أتساءل أحيانا: كيف حالهم؟ أين هم الآن؟ هل تزوجوا أم مازالوا في مملكة العزوبية؟ هل حققوا أحلامهم؟

كل هذه التساؤلات لا أجد لها جوابا محددا. انقطعت الاتصالات معهم ولا نسمع أخبارهم إلا بمحض الصدفة خصوصا بعد رحلتي الأسطورية الغامضة من الجزائر عبر كل تلك المسافات التي أعجز الآن عن تحديدها غير أني أتذكرها شبرا شبرا.

وحين تحصلت على الشهادة عدت إلى البيت وأسرتي كلها أمل في أن أحصل على عمل، باركوا لي وهنأوني وسعدوا بي سعادة أكثر من سعادة النجاح في البكالوريا معتقدين أنه وقت الخلاص. عدت كم يعود من معركة معتقدا أنها الأخيرة فيستريح مع عائلته.

لكن لا هذا ولا ذاك، تشاء الأقدار حتى لا أقول يشاء النظام، وكفئة كبيرة وهي الغالبة أن نقبع في غياهب البطالة، إذا توجهت إلى شركة ما سيطلبون منك الخبرة ولكي تمتلك خبرة يجب أن تشتغل، معادلة لا حل لها، تماما كما يطلبون منك أن تكون متزوجا حتى تحصل على سكن وحتى تتزوج يجب أن يكون لديك سكن. وكثير من المعادلات الأخرى التي لا حل لها في هاته البلاد.

إجراء روتيني قمت من خلال التسجيل في مكتب التشغيل الأقرب من بيتنا، يقولون إن مهمته هي توفير مناصب العمل والتنسيق بين طالبي العمل والشركات. مهمة هذا المكتب الحقيقية هي إحداث الأمل في الفوز بل بالأحرى ترسيخ الأمل في أشياء لا وجود لها.

حين دخلت إليهم وقدمت شهادتي انبهروا بمعدلاتي وعبروا عن إعجابهم بها، ظننت في تلك اللحظة أني حاصل على منصب لا محالة. الأيام الأولى بعد تخرجك من الجامعة تكون في قمة العفوية وتكون لك نية خالصة وثقة عمياء في نظام بلدك تقويها نصائح أمك وأبيك لتتصور الجزائر على شكل سويسرا أو السويد أو النرويج ثم إن تلك الشعارات المعلقة في مكاتب التشغيل تزرع فيك أملا ما.

لكن هيهات هيهات أن يكون كل ذلك حقيقة، أنا وأمثالي لم نجد شيئا، مكتب التشغيل ذاك يتحول أحيانا إلى ملكية

خاصة لا يردون عليك السلام حتى، وأحيانا يتم استدعاؤك من أجل منصب بأجرة تافهة لا تكفي حتى لمصاريف التنقل وأحيانا تجد اسمك محذوفا من المكتب هكذا بلا سبب ثم يتحججون بخطأ في النظام.

-ثم لم تشتغل مطلقا؟

-يا عزيزتي ماذا بوسع شاب من أسرة فقيرة أن يفعل؟ اتجهت إلى أعمال لا علاقة لها بالدراسة مطلقا، عدت إلى زمان الثانوي، إلى ورشات البناء ورغم التعب الذي ينهكك لكنك تحصل مبلغا لا بأس به، تساعد عائلتك على الأقل إلى إشعار آخر.

-لكن ماذا عن دراستك؟ هل تذهب في مهب الريح؟

-ذاك هو بيت القصيد، لماذا ندرس، إن كنت أيها النظام غير قادر على توظيف المتخرجين فلماذا ترسلهم إلى الجامعة أصلا، وإن كان العلم مفيدا فلماذا أبقى باحثا عن الخبز، من الصعب أن تفكر في العلم إذا كنت لا تملك ثمن قطعة خبز، في مرحلة ما أنت تحتاج لترتاح قليلا مستلقيا في حديقة بيتك أو في سريرك آمنا ليس من الخوف بل آمنا من الجوع.

بعد عام من التخرج اتصل بي ذلك الأستاذ الذي كنت أفضله أيام الجامعة، عاشق الريف وأخبرني أن هناك مسابقة لدراسة الماجستير في فرنسا، يتحصل الناجح على منحة ليكمل الماجستير في فرنسا. لم تقم الجامعة بإعلان المسابقة ولا بإبلاغ

متفوقي الدفعات بذلك. ذلك الأستاذ لم أخطئ إذ التمست فيه الخير أيام الجامعة، بعفويته بطيبته بمزاجيته، نحن لا نلتمس الخير إلا في العفويين الذين لا يخالط قلوبهم خبث.

لم تعلن الجامعة عن المسابقة لحاجة في نفس يعقوب، روما تأذن للصلاة ولا تأذن ليوم اقتسام غنائم الحرب. تلعب المحسوبية دورا كبيرا جدا في المنح الدراسية للخارج وإلا بماذا تفسر نجاح طلبة أغبياء وإخفاق الممتازين إلا قليلا. وحين قصدت مقر رئاسة الجامعة أستفسر عن الوثائق المطلوبة افتجأوا للأمر. كانوا يعتقدون أن القضية سرية للغاية حتى ينجح أبناء المسؤولين وأبناء كوادر الجامعة. هذه هي الحقيقة لا خجل ولا حياء.

بعد أن تأكدوا أن لي علم بالمسابقة وبكل تفاصيلها تجاوبوا معي وقدموا لي قائمة الوثائق المطلوبة. قالوا لي في البداية إنها مخصصة لأوائل الدفعات، أنا متفوق دفعة، إنها مخصصة للدفعتين السابقتين، أنا من الدفعة السابقة. لا مفر استجابوا في الأخير.

أعددت الملف ووضعته لدى الإدارة. وكانت المفاجأة بعد ثلاثة أيام.

اتصل بي ذلك الأستاذ الطيب على عجل.

-ياسر هناك خبر عاجل. تلك المسابقة لا أساس لها من الصحة.

-أووو كيف ذلك أستاذ؟

-وصلني الخبر منذ قليل، إنها اتفاقية بين جامعتنا وجامعة مونبولييه بفرنسا تقضي بالتحاق الطلبة الأوائل لثلاث شعب ومنها الإعلام الآلي مباشرة لدراسة الماجستير بمونبولييه ودون مسابقة.

-إذن المسابقة التي تتحدث عنها إدارة الجامعة لا أساس لها من الصحة.

-بالطبع، هي طريقة احتيال حتى تتم تصفية الممتازين.

-وما العمل الآن.

-سأرسل لك ايميل جامعة مونبولييه، راسلهم واشرح لهم الأمر جيدا وسأراسلهم انأ أيضا بخصوصك.

نزل الإيميل الذي أرسلته إلى جامعة مونبولييه كالصاعقة على إدارة جامعتنا، حيث وصلتهم مراسلة من هناك تحتج على قرار المسابقة وتطلب منهم عاجلا تصحيح الأمر وإدراج اسمي ضمن القائمة وأسماء متفوقي الدفعات.

لم يكن بيد إدارة جامعتنا إلا الاستجابة لتلك المراسلة وانتصر صوت الحق، صوت ذلك الأستاذ العفوي الذي لا أنساه، لولاه لكانت القائمة تشكلت من أبناء المسؤولين وقضي علينا في المهد. بمثل هؤلاء ينتصر الحق في كل مكان لكنهم للأسف قليل والفاسدون كثير.

وحين ذهبنا لاستلام مقررات الاستفادة من الإدارة وقف نائب رئيس الجامعة بعد أن تلون كالحرباء وغير موقفه: «أتمنى لكم التوفيق وأرجو أن تشرفونا هناك، فأنتم صفوة الصفوة"

-نحن المتفوقون وهذا طبيعي أننا سنشرف جامعتنا ووطننا وأنفسنا وعائلاتنا بل سنشرف حتى هؤلاء الذين لا شرف لهم.

ثم عبس وجهه وكف عن الكلام لأنه فهم أننا نقصده وعصبته، كم من الغلابى هضمت حقوقهم بسبب تعسف الإدارة والمحسوبية التي أصبحت من القانون. كم من متفوق حرموه الفرحة بسبب تلك التصرفات، كم من متفوق دفنوا أحلامه تحت التراب أو أجلوها إلى زمن بعيد، تذكرت أحد أبناء قريتنا، كان متفوقا في دفعته وكان حلمه أن يصبح دكتورا باحثا في البيولوجيا، كم وكم وكم.

أخبرت عائلتي أني بعد حوالي شهر سأتوجه إلى فرنسا لدراسة الماجستير، سعدت عائلتي لأني سأكمل دراستي، سألوني بداية عن التكاليف واحتارت أمي من أين سنتكلف الأمر وحين أخبرتها أنها منحة مدفوعة ابتهجت.

أصدقائي فرحوا كثيرا وهنأوني لأني سأذهب إلى فرنسا وفرنسا في الجزائر هي حلم كل شاب، وبين فرنسا والجزائر روابط كثيرة تاريخية وسياسية واقتصادية واجتماعية. ألم تعلم أنها استعمرتنا 132 سنة ولم تخرج حتى أسالت دماء مليون ونصف شهيد، ألا ترى كيف امتزجت لغتنا التي نتحدث بها بكثير من الكلمات

والعبارات الفرنسية، أنظر إلى حجم العلاقات الاقتصادية بين البلدين، تأمل العدد الكبير من المهاجرين الجزائريين في فرنسا، حتى أن ولاية مرسيليا صارت تلقب بالولاية رقم 49 وعدد الجزائريين الذين يتحصلون الآن على معاش من صندوق التقاعد الفرنسي.

حلم الشباب في بلدي هو الوصول إلى فرنسا، يا سبحان الله كيف انقلبت الأمور، وصرنا بهذا الشكل، كيف صرنا نحلم بالهجرة إلى بلد بالأمس كنا نحاربه لنخرجه من وطننا، بل كيف صار هذا البلد أحن علينا من وطننا الأم. فإذا سألت راغبا في الهجرة إلى فرنسا عن السبب سيحدثك عن الظروف الاقتصادية والخدمات الاجتماعية، يا سبحان الله كيف صارت فرنسا أحن علينا من وطننا الأم. هل صار وطننا بشعا إلى درجة أن صار أقصى أحلامنا هو أن نغادره.

حلم الجزائري إذا بلغ الحلم هو الهجرة إلى فرنسا ويظل هذا الإشكال عاقلا إلى يوم الدين.

بسرعة قصوى أعددت ملفاتي اللازمة وكل المتطلبات تفرغت لكل الإجراءات فأتممتها في عشرين يوما. حتى حانت ساعة الانطلاق.

لم تخف أمي حيرتها لكن بما أنني قاصد العلم ارتاحت نفسيتها آملة في أن تراني في درجة علمية عالية، أوصلني أخي الأكبر محمد وصديقه إلى المطار وأنا بحقيبتين واحدة أجرها

والأخرى على ظهري وكم أحب جر الحقائب في المطارات ذلك الصوت الجميل، إنه صوت الأمل، لو كان للأمل صوت لكان صوت جر الحقائب في المطارات.

رحلة عبر الخطوط الجوية الجزائرية وما أسوأ الخدمات التي تقدمها وما أسوأ تعامل موظفيها مع المسافرين، كنت في الثالثة والعشرين شابا طموحا بقوام رياضي، باندفاع، بجرأة بكبرياء بعزيمة، رافعا التحدي، منتش بالأمل وبحصولي على هذه المنحة وأمامي تحد كبير هو أن أصل إلى درجات علمية كبرى في تخصصي غير مبال بما يخبئه القدر لي.

حطت الطائرة بمطار شارل ديغول بفرنسا، ديغول الذي قال ذات يوم أننا خرجنا من الجزائر وتركنا فيها أناسا أكثر فرنسية من الفرنسيين. فكرة تبدو صحيحة إذا ما تأملنا الوضع الذي آلت إليه الجزائر من 1962 إلى الآن، ألم يفعل بنا هؤلاء المسؤولين أكثر مما فعلته بنا فرنسا في 132 سنة؟ بنظرة بسيطة نعم فعلوا بنا ما تفعله فرنسا للأسف ويواصلون مهمتهم القذرة بكل إتقان.

من باريس إلى مونبلييه مسيرة ثلاث ساعات ونصف مونبلييه المطلة على البحر المتوسط جميلة كجمال عرائس المتوسط كبجاية وجيجل وسكيكدة.

لم تكن إجراءات التسجيل معقدة كثيرا، تسجيل في الجامعة، حجز الإيواء، تسجيل المنحة الشهرية. وبعدها التعرف على نمط

الحياة هناك، مجتمع جديد، لا مشكلة مع اللغة الفرنسية إنما مع العادات هنا والتأقلم معها.

-لكنك لم تخبرني أنك درست في فرنسا ثم لماذا تحولت حياتك كل هذا التحول، لماذا ارتأيت أن تقوم بتلك الرحلة الطويلة عبر تلك المدن؟ هل كان ذلك بدافع السياحة؟ أين انتهت بك رحلتك الدراسية في فرنسا بعد الماجستير؟ كيف عدت إلى بلدك ثم سلكت هذه الرحلة الطويلة؟ لا أفهم ياعزيزي، سأجن.

-يا أيتها الجميلة إن الأقدار سارت عكس ما تمنيته، عكي ما تمنته عائلتي بل عكس ما تخيلناه.

كنت شابا طموحا نشيطا مندفعا مقداما، انخرطت في النادي العلمي بجامعة مونبلييه، بطبعي أحب الحوار، أحب حوار الثقافات والأديان حتى أني قطعت فيه شوطا كبيرا، بما أن الاختلاف رحمة فإني أرى في اختلاف الأديان والثقافات رحمة لا تضاهيها رحمة في الوجود. تمكنت أنا وأحد أصدقائي المسيحيين من تنشيط هذا النادي بالحوارات الهادفة والتي جلبت حتى طلبة من جامعات أخرى للحضور.

الفكرة التي كانت ببالي هي أن الأنظمة في أوربا تدعم حوار الأديان والحضارات وهي فكرة اكتشفت أنها فكرة خاطئة لا تنطبق على كثير من الدول ومنها فرنسا ومنها تيقنت أن لا

فكرة عن حوار الثقافات والأديان لا تصلح لتكون من المسلمات، إنما تخضع للتجريب.

بدأنا نتعرض للمضايقات بعد أن ذاع صيتنا في الجامعة أحيانا نمنع من عقد لقاء وأحيانا نمنع من حضور الجمهور وأحيانا لا يرخصون لنا بعقد المحاضرة. لكننا كنا نقاوم كل هذه العراقيل من باب الصبر وللصبر حدود. فقد تنازلنا عن بعض نشاطاتنا وتنازلنا عن حضور الجمهور وقلت لقاءاتنا والمدهش أن إدارة الجامعة استمرت في استفزازنا والتضييق علينا.

دخلت ذات اثنين إلى مدرج بالجامعة وقبله بيوم تعرضت لمضايقة في الشارع أدت إلى شجار بيني وبين أفراد متطرفين أنجاني منه قوامي الرياضي، كيف تطورت الأمور إلى الأسوأ دخلت المدرج وفاجأني أحد إداريي الجامعة بألفاظ نابية ثم بألفاظ تسب الإسلام كدين، تمالكت نفسي حتى قام بسب أمي، هنا جن جنوني فأشبعته ضربا أمام الجميع الذين ذهلوا كيف لذا الطالب الجميل الذي تعود على الحوار أن يضرب موظفا. بعض الذين سمعوه لما قام بسب أمي ساندوني وتضامنوا معي.

هالة كبيرة وسط المدرج، وتضارب في وجهات النظر، طالب يعتدي على موظف، شجار بين موظف وطالب، الذين سمعوه لما سب أمي تضامنوا معي، البقية منقسمون بين متضامن معي

ومتضامن مع الموظف، طبعا العنصريون تضامنوا مع الموظف بحكم أني عربي جزائري مسلم. العنصرية لا دين لها.

اجتمعت إدارة الجامعة اجتماعا طارئا لدراسة قضيتي، طبعا تمت إحالتي على المجلس التأديبي، حضرت دفاعي عن قضيتي في اليوم الموعود، حاول أعضاء اللجنة إثبات التهمة كأنهم نيابة عامة للجمهورية، وتمسكت أنا بحق الدفاع عن النفس، تحولت من جلسة تأديبية إلى جلسة محاكمة حتى ثرت في وجوههم: "«أصدروا حكما بسجني إن شئتم وكفوا عن هذه الترهات""

وأحد زملائي يحاول أن يهدئ من روعي دون جدوى، ثارت ثورتي في بلاد فولتير: «أنتم عنصريون، ضيقتم علينا كل نشاطات حوار الثقافات والأديان ثم يصل بكم الأمر إلى شتم أمهاتنا، أنتم لا تستحقون الحياة "". وهم صامتون حتى فرغت من كلامي حملت محفظتي وخرجت.

-انتظر حتى تسمع قرار المجلس. ناداني أحد الموظفين.

-لا حاجة لي به، بلغوني إياه.

حقد ذلك الموظف لحقني إلى أروقة المحكمة، حيث تابعني بتهمة الضرب والجرح، وكلت محام قام بعمله على أحسن وجه من بداية القضية حتى صدور الحكم بتبرئتي استنادا إلى أدلة منها شهادة بعض الحاضرين، طبعا حكم قابل للطعن بالاستئناف. وهذه نقطة ايجابية تحسب للقضاء هنا هي الإنصاف ولهذا

ينصرهم الله. تذكرت الحديث القائل: «إن الله ينصر الأمة العادلة ولو كانت كافرة ."

ولم يشفع لي ذلك الحكم لدى إدارة الجامعة التي بلغتني بقرار الفصل النهائي، ووجدت زملائي في النادي العلمي يفكرون في طريقة لإقناعهم بالعدول عن القرار لكن دون جدوى وتأسفوا حتى المسيحيون منهم لم ترق لهم مغادرتي واحتضنوني وودعوني سيدات دمعت أعينهن.

-لا تقل سيدات، لا أريد لأي امرأة أن تنافسني فيك

-كفي عن هذه المواويل، المشكلة أكبر من ذلك، ستظل النساء يركزن على تفاصيل تافهة حتى وأنت تغرق في المحيط ولا يرضين أن تتطوع سيدة لتلقي إليك حبلا أو وعجلة مطاطية تنقذك.

-أعتذر، وماذا فعلت بعدها؟

-ماذا أفعل؟ حزمت حقائبي ورحلت.

-إلى أين؟

-إلى قريتي الصغيرة طبعا، لم يعد لي مقام في فرنسا بعد الآن، هذا البلد لا يفتأ يلاحق الطيبين وأنا قصدته للدراسة وهاهم قد حرموني منها لسبب واحد ووحيد: دافعت عن شرفي، نحن لا نقبل أن تسب أمهاتنا، أمهاتنا هن الوطن هن الشرف هن كل شيء، بل قولي لا نرضى أن تسب نساؤنا فهن المؤنسات الغاليات هكذا يقول نبينا.

-دينكم إذن يعطي للمرأة مكانة كبيرة.

-طبعا، ديننا أمرها بالستر كما تنص شرائعكم على أن الستر للملكات، وساواهن مع الرجل في كثير من المسائل وألزم الرجل بالإنفاق عليهن حتى وإن كن عاملات وجعل الجنة تحت أقدامهن.

-لكني لم أسمع بهذا من قبل؟

-طبعا، أنتم لا تسمعون إلا أكاذيب وافتراءات عن الدين. سيكتب التاريخ أني رضيت أن أفصل من الدراسة مقابل الدفاع عن كرامة أمي.

-ليتني أتمكن من دراسة دينكم جيدا.

-يمكنك يا إيمي سأحضر لك كتبا تغنيك عن كل سؤال.

-جميل.

-20-

حزمت حقائبي أيها السادة وعدت مع أول طائرة عائدة إلى الجزائر. وطبعا أهلي وأصدقائي اندهشوا من الموقف. لم أشأ أن أقص على عائلتي قضية الشجار والطرد، قلت لهم أن البرنامج الدراسي تم إلغاؤه وتأجيله إلى فترة أخرى. أصدقائي المقربين نبهوني إلى فكرة بعد فوات الأوان: «لماذا لم تغادر إلى دولة أخرى"

محقون هم، ليتني انتقلت إلى دولة أخرى، ماذا لو ذهبت إلى ألمانيا، كنت اختصرت المسافات والزمن والأتعاب وأشياء أخرى، ربما كانت أقدار أخرى، لو انتقلت إلى ألمانيا حينها لما عرفت إيميليانا ومارتن والرفاق ولما حصلت على عمل جميل في برلين ولما خضت رحلة عظيمة كتلك التي خضتها من قريتي حتى مطار برلين، لكنت ربما في أسوء حال من يدري. اتخذت قرار العودة عن غضب ويأس لكنها إرادة الله هي التي اختارت ذلك فلك الحمد يا الله كل ما تختاره.

استرحت لأيام قبل أن يعود إلى التفكير الذي ينغصني، بطالة وانقطاع عن الدراسة وفوضى تفكير مؤلمة. وكي لا أفشل قمت بزيارة بعض المدن الساحلية كبجاية وجيجل مروحا عن نفسي قليلا.

كأني أعيد التأقلم من جديد مع الحياة، لا جدوى من مكاتب التشغيل تلك ولا مناص من العودة إلى ورشات البناء التي تحضننا، عودة إلى الأصل.

لكن تلك الإرادة لم تمكني من الصمود طويلا، بعد حوالي 04 أشهر، عاد ذلك التفكير ينغصني من جديد، أين طموحك؟ أين أفكارك؟، أين مكانتك، أنت تستحق الكثير من الأشياء الجميلة، وما العمل؟ صرت مدمن تفكير من جديد خاصة بعد أن صادفتني الكثير من العوائق في سبيل الحصول على عمل، بعد وجدت جدرانا كثيرة في طريقي إلى تغير حياتي ولو بالشيء القليل، أنا لا أحتقر العمل مهما كان فالعمل شرف لكني أريد شيئا ما، ذلك الطفل في داخلي ما يزال يريد تحقيق رغبته ويرفض التنازل عنها. كيف ستبقى يا ياسر في هذه الوضعية وباءت كل محاولاتي بالفشل في الحصول على منصب يناسبني فلا أنا اشتغلت ولا أنا حصلت على المال ولا ولا. تبا لي ليتني انتقلت إلى بلاد أخرى بدل العودة إلى الديار.

ولا سبيل إلا العودة، وهذه المرة لن تكون فرنسا، سأجرب دولا أخرى، أولى الخطوات هي أني أعددت ملف طلب فيزا، بدأت بإسبانيا وقوبل طلبي بالرفض طبعا وحين استفسرت عن السبب وجدت أن سفارة فرنسا قد أعلنت عن إقصائي من الفيزا لمدة خمس سنوات، جربت بعدها دولا أخرى دون

جدوى. أدركت أن لا وسيلة لي غير الهجرة غير الشرعية "الحرقة"

حكايات كثيرة شائعة عن الحرقة في بلدي وعن طرقها لكن أشهرها هي طريق اليونان، السفر بداية إلى تركيا وبعدها اليونان ثم دول أخرى حتى الوصول إلى أوربا الوسطى.

أحد أصدقائي حاول إقناعي بعدم المغامرة بفكرة الحرقة، وقد كان منذ شهر يقول بأنه سيرافقني. جليل بارد الدم، بارد المشاعر قليل الحماسة متكاسل في الكثير من أمور الحياة حتى أنه تخلى عن دراسته الجامعية في السنة الثانية وتوجه للعمل في إحدى مقاهي الانترنت مكتفيا بالبحث في غرف الدردشة عن الأوربيات مصطدما في مرة بعائق اللغة، حيث لم تشفع له القواعد التي تلقاها ففي مرحلتي المتوسط والثانوي.

استيقظت في الصباح الباكر، أديت صلاة الفجر في المنزل، ارتديت أفضل ما لدي والوجهة سفارة تركيا في الجزائر.

كان الجو غائما على غير العادة مع دخول الصيف، حطت أقدامي بالجزائر العاصمة في يوم شاق حتى المساء لتمنح لي التأشيرة، تأشيرة لمدة شهر، بعدها حجزت تذكرة وعدت إلى البيت حتى أحضر لوازمي.

من المستحيل أن تخبر عائلتك أنك ستذهب حراقا كي لا تحرق أعصاب أمك على الأقل، أخبرهم أنك ستذهب باحثا

عن طريق لإكمال الدراسة على الأقل سيطمئنون رغم أن أمك لا يسعدها شيء غير المكوث في البيت.

ولا تحضير للرحلة، هذه المرة لن آخذ معي غير لوازم خفيفة فلا يمكن أن أثقل كاهلي بأغراض وحقائب، أنا بحاجة إلى الخفة. لذلك حقيبة ظهر كانت كافية للغرض. هي الأقدار تتلاعب بنا، أحيانا تحزننا وأحيانا تفرحنا، من كان يدري أنه سيتم طردي من مونبلييه وأنا الفتى الهادئ المسالم، من كان يدري أن ذلك يتسبب في عزوف السفارات عن منحي التأشيرة.

بعد كل هذه الأحداث المتضاربة تساءلت: «هل خيار الحرقة خيار صائب؟"

تخيلت نفسي في لحظة ما، ربما لحظة ضعف أنني أحارب القدر وأنه علي أن أخشى من مجابهة القدر فحتما سيغلبني ثم أفاجئ نفسي: «لا لا هذا صوت إنسان فاشل، من يتهيب صعود الجبال يعش أبد الدهر بين الحفر ". بقي هذا السؤال يطاردني حتى وطئت قدماي بلاد العثمانيين، حينها تحولت هذه الفكرة إلى حقيقة يجب أن أعيشها، تحولت إلى واقع يجب أن لا أفر منه، قف على عتبة الحلم وقاتل.

-21-

-ألم تعدني أنك ستحضر لي كتبا تشرح دينكم؟

-عذرا يا إيمي، لم أنس، أجلبها لك في غضون أيام

-ولدي ملاحظات أخرى على سلوكك.

-أوووف، ها قد بدأ الحساب العسير.

-ليس حسابا، من المفروض أنك تتقبل ملاحظاتي بصدر رحب كما عهدتك، أنت هادئ وودود.

-لا تقولي إنك لا تحبني.

-أبدا يا عزيزي لم أقل ذلك ولن أقول.

-ماذا غير ذلك، أليس هذا كافيا ليزرع السلام الدائم بيننا، أليس هذا كافيا كي نعيش في هدوء وطمأنينة، الحب كل شيء أليس كذلك، أليس هذا كافيا كي نشعر بالراحة والأمان، ألا يغنينا هذا عن كل التفاصيل الصغيرة التي قد تعصف بالشعور العظيم.

-أنت محق، إنما أردت أن أشير إلى فكرة أننا لا نتواجد كثيرا مع بعضنا.

-كل منا له إطار يشغله، أنت مع دراستك وبرنامجك اليومي وأنا مع العمل والدراسة، من المنطقي أن نتواجد وفقا لما هو متاح من الوقت.

-ولكن هذا لا يكفي، أنا أريد أن نتواجد دائما معا، والمشكلة الكبرى أننا في عطلة نهاية الأسبوع نلتقي فقط في المقهى أو الحديقة، كأننا مازلنا صديقين فقط.

-قد قلت لك أننا نتواجد حسب الظروف. ثم إن لقاءاتنا في الحديقة في حد ذاتها إنجاز.

-هل تسخر مني. كيف تسميها إنجازا؟

-بالنسبة لرجل محافظ مثلي يعتبر ذلك انجازا وستقرئين ذلك في الكتب التي سأهديك إياها.

-صديقاتي مع أصدقائهن يعشن حياة لا ممنوع فيها، حياة مفتوحة لا حدود فيها وها أنت ترسم حدودا لا أرى طائل من ورائها ولا سبب لها مطلقا.

-افهميني يا عزيزتي. أنا لا أضع حدودا، قلت لك ألف مرة: "أنا لك «وهذا يعني الكثير على ما أظن، كل شيء لك، إنما ظروف ومعطيات هي من تتحكم في تواجدنا معا من عدمه.

-لا أرى مبررا لهذه الحدود، أنت تقول بيننا حب، وهل سمعت في حياتك حبا له حدود؟؟

-لكننا نعيش في حياة محكومة بالظروف.

-لا تتحجج بالظروف. كفى.

حملت محفظتها الوردية وغادرت غاضبة. غادرت أنا بعدها وقد اقتربت الشمس من المغيب.

ها قد عدنا إلى صراع المعتقد من جديد، الصراع الذي يعود إلى الواجهة كلما اعتقدت أننا قد طوينا ملفه.

ماذا بوسعنا أن نفعل؟

وأنا مستلق على سريري الجديد الذي اشتريته منذ يومين مقابلا طاولة صغيرة وشاي، كأني أسمع صوت ناي قادم من هناك من مقهى شرقي، ذلك الجار الذي يختار النغمات حسب مزاجه، مرة مبتهجا وحينا حزينا يطلق أنغاما ذات شجن كما يفعل الآن مع هذا الناي. يدي على جبهتي واليد الأخرى على حافة السرير. ماذا علي أن أفعل؟

قالت بأنها لا تريد هذه الحدود، هل تريد أن أعاملها كزوجة؟ هل جنت؟ هذا ليس معقولا، أنا أعاملها بلطف، ألتقيها عندما تتاح لي الفرصة وفي المقابل لا أقبل أن نتعدى الحدود لنصبح زوجين بلا زواج ثم إني أحيانا كثيرة أنشغل بقراءة القرآن محاولا استرجاع ما نسيت في تلك الرحلة المتعبة وأحيانا أنشغل بصلاتي. أنا لا يمكن أن أغير من معتقدي مهما حاولت إيقاعي في فخ المقارنة مع صديقاتها، لهم دينهم ولنا ديننا.

ضحك مارتن حين أخبرته عن القصة.

-يا صديقي ما أعرفه أن لا حب دون تلك اللقاءات والمواعيد ونحن لا نفرق بين الحب والطقوس الزوجية، نحن يمكن أن نعيش مع بعض سنوات ثم نتزوج لأجل الرسميات والأولاد فقط.

-ولكنني لست مثلكم، لدي ثقافتي ومعتقداتي نقل وفلسفتي.

-أعلم وأنا شخصيا أحترم تفكيرك ووجهة نظرك مهما كانت، حقك في المعتقد لا يناقشك فيه أحد، أما بالنسبة لتعاملك مع إيمليانا فلا أستطيع أن أقول إن أحدكما مخطئ، من الجيد أن تصلا إلى علاقة متينة وأن تنسجما فتشكلا كيانا واحدا لا تزعزعه الحياة ولا تنغصه التداخلات التي يمكن أن نتفاداها.

-وذاك ما أردت أن أوضحه لها منذ مدة، لكنها للأسف تغضب كل مرة وتذرف دموعها معتقدة أني استغل حبها لي كي أحرمها من أشياء عدة وتوقعني كل مرة في فخ المقارنات مع صديقاتها.

أنا مثلا لا أشرب الخمر ولا أحب الملاهي والنوادي الليلية وهذا قبل أن يكون محرما في ديني، من حقي أن أرفضه من باب حرية الفعل وحرية المعتقد، ماذا لو وجدت شخصا ليس مسلما ولا يحتسي الخمر بدافع الحفاظ على صحته، طبعا ستكون حجته مقبولة جدا. حري بنا أيضا أن نتقبل الآخر من باب حرية المعتقد.

-ماذا عساي أقول لك أيها الصديق الجميل. أنت شخص طيب ورائع، أتمنى لك كل جميل وأتمنى أن تجدا أنت وإيمي

انسجاما يليق بكما فكلاكما طيب حتما ستشكلان كيانا رائعا.

جورج اللعين يسخر مني في كل مرة: «يا رجل كأنك قادم من زمن آخر، ما الذي يمنعك من النوادي الليلية وأن تراقص صديقتك مادامت تريد ذلك، كيف تريد أن تكون علاقتكما متينة وأنت تضع حدودا كثيرة في وجهها، الحب الذي يعترف بالحدود ليس حبا ."

تصر إيميليانا على غضبها أسبوعا ثم تعود إلى رشدها أسبوعا وحين تعود تنقلب كلماتها ولغتها فتصبح تلك المرأة الجميلة المتكلمة بحلو الكلام، المعالجة أفكارا راقية، الناطقة حكمة.

تعود متفائلة بغد أفضل وتفتح مواضيع جميلة عن الثقافة والأدب والاكتشافات والحضارة وحوار الثقافات، حين تعود إلى رشدها تحلو جلسات المقهى وتسعد فرقتنا المسرحية حين تجتمع. أجمل اللقاءات هي التي لا حساب فيها حين تكون الأنفس منسجمة بعيدا عن كل المخططات.

فرقتنا المسرحية التي تطورت كثيرا بانسجامنا وانضم إلينا توماس الطويل الأشقر الذي ينطبق عليه اسم الألماني بامتياز فميزة الألمان الطول، قلما تجد ألمانيا قصيرا. وميزتهم السكوت، هل سمعت يوما عن فيلم ألماني أو سلسلة فكاهية ألمانية، هل سمعت بأن لألمانيا باعا طويلا في مجال التمثيل. طبعا لا، إلا المسرح فالمسرح أبو الفنون، أبو كل شيء.

وحين تغضب كالنساء تصبح تلك المرأة التي لا ترضى بأي شيء، لا ترضى بكل ما أبذله من جهود كي تكون هذه العلاقة على أحسن وجه، أنا عفوي بطبيعتي وأحب أن يحترم الآخرون معتقداتي كما أحترم أنا معتقداتهم، وقد شرحت لها الكثير والكثير.

-هل اطلعت على تلك الكتب التي أهديتها إياك؟

-اطلعت على واحد فقط على كتاب-Usul_al : Fiqh

-أه جميل، أكملي ستفهمين الكثير مما كنت أحدثك عنه وستكتشفين ديانة رائعة كنت غافلة عنها.

-ولم لا. أنت تعرف أني أحب الاكتشاف. لكني لازلت مقتنعة أنك تضع حدودا بيننا، حدودا لا تليق بنا البتة، إن عقلي لا يستوعب أن نبقى هكذا.

-حسنا أيتها الصديقة الوفية لنتزوج ونجتمع تحت سقف واحد.

-أووه. وما الذي يمنعنا الآن من أن نجتمع تحت سقف واحد.

-ها قد عدنا إلى المعتقد، ديننا يا ايمي يحرم كثيرا من الطقوس التي حدثتني عنها والشائعة تحت مسمى الحب، كثير من تلك الطقوس لا وجود لها في ديننا، بل إني في بعض الأحيان أخطأت في بعضها.

-لكن قرأت ذات يوم في مقال أنه حتى الحوار مع المرأة لا يجوز في دينكم.

-لا يا إيمي، يبدو أنك لم تختاري المصدر الصحيح الموثوق. ديننا لا يحرم الحوار مع المرأة، الحوار أساس التواصل وشريان العلاقات الاجتماعية على اختلافها، ديننا يقدم نظاما اجتماعيا راقيا.

-وماذا لو قلت لك أني لا أقبل فكرة الزواج هذه؟ ولا أقبل هاته الحدود التي وضعتها بيننا؟

-سيكون هنالك كلام آخر. لكل مقام مقال.

انقطعنا في فترة امتحانات الجامعة عن المسرح ولا أخفي عنكم أيها السادة أن عقلي صار شاردا منذ آخر لقاء معها، أسبوع يمر الآن وأنا متعب بين امتحانات الجامعة والعمل في المكتبة، وغدوت ذلك الفتى التائه، ألا يكفي تعب الذاكرة حتى ينضم إليها تعب التفكير، ما من جحيم في هذا العالم سوى أن تكون مفكرا ذا ذاكرة قوية وحتى محاولات النسيان لا تفلح في كثير من الأحيان. تائه في انتظار أن تنتهي فترة الامتحانات هذه، لنعود بعدها إلى جلساتنا في المقهى لعلنا نجد حلا لمعضلتنا هذه. ولم أتصل بها طوال هذه المدة.

المكان في المقهى هذا مؤكد والزمان يوم أحد عطلة نهاية الأسبوع والتوقيت التاسعة صباحا والجو شمالي خالص، مغيم ببرد خفيف يتسلل إلى الأرواح. التقينا بعد تلك الفترة اللعينة

فترة امتحانات الجامعة وكل منا لديه شيء في جعبته يريد أن يبوح به.

وبعد أن استعرض كل منا صعوبة امتحاناته قل الكلام رغم أني بادرت بالحديث عن كتاب قرأته قبل مدة، تجاوب معي ميشال وألبرتو وريتا، وسكتت إيمليانا على غير عادتها. هل انتهى بنا المقام؟

-آه ميستر ياسر. أريدك أن تحضر لي كتبا تتحدث عن دينكم. ألبرتو.

-طبعا وهذا الأمر يبهجني. أحب فيك روح الاكتشاف. وقد أهديت لإيمي كتبا أرجو أن تقرأها جميعا. سأكون سعيدا لو تكتشفون روعة ديننا وحكمته كدين سلام بعيدا عن التحريفات والتهم الملفقة له في وسائل الإعلام المتعمدة منها وغير المتعمدة وبعيدا عن أولئك الذين لا يقدمون الصور الجميلة لأدياتهم وثقافاتهم.

وحين انتهت جلستنا على عجل على غير عادتها جلساتنا التي كنا نطيل فيها لساعات نداعب القهوة وأحيانا يتطوع واحد منا وفي الغالب أنا لإلقاء محاضرة في موضوع معين. هل هو مجرد فتور فترة ما بعد الامتحانات أم أنه بداية النهاية في فرقة رائعة، جمعها المسرح وجمعها الكتاب وجمعتهم القهوة في في مدينة شمالية شرقية، شرقية الموقع وشرقية القهوة وشمالية المقاهي.

في لقاء بعد ذلك مع إيمليانا وفي محاولة منا لإعادة الروح إلى علاقتنا في مكتبة آنا ريختر بالضبط حين جلسنا في بهو المكتبة على أرائك مخصصة للراحة.

-كيف حالك أيتها الرومانية.

-بخير أيها الإفريقي الشمالي.

-ها هي المكتبة، ها هي الحياة، وكلما ابتعدنا عن الكتب عاقبنا الله بالبشر.

-أجل. بحق المسيح، يعاقبنا الله بالبشر.

-هنا التقينا ذات يوم إن كنت تتذكرين ذلك في يوم جميل وتبادلنا أحاديث الكتب وكم نسعد بالحديث عن الكتب إلى أصدقائنا وها أنا ذا مازلت الفتى المولع بالكتب وأحاديث القراءة والثقافة.

-أتذكر جيدا يا ميستر ياسر وأتذكر كل لحظة جمعتنا وكم أحب جلسات المقاهي ومحاضراتك. كم أحسدك على روحك.

-وماذا بخصوص قضيتنا. هل فكرت في الأمر؟

-قد أعلنت موقفي وأدليت برأيي بصراحة والدور لك. ليست لدي فكرة الزواج هذه ولا أقبل الحدود التي رسمتها لنا.

-أنا أيضا أعبر عن رأيي الآن: «حتى فكرة الزواج أتنازل عنها والحدود تبقى"

-إذن ليذهب كل واحد منا في طريقه وحتى فكرة أن نعود كما كنا من ذي قبل لا تروق لي ولا أراها ممكنة في الوقت الحالي.

-سأطلب منك شيئا وأرجو أن لا ترفضيه: «أكملي قراءة جميع الكتب التي أهديتك إياها، إقرئيها جيدا وافهميها وبعدها سيكون لنا كلام ."

-جميعا؟

-أجل واجعلي ذلك عربون صداقة واجعلي قراءتها بمثابة هدية لي. ألا يروق لك هذا؟

-أقرأها كهدية. هذا من أجمل ما سمعت في حياتي.

-إلى اللقاء أيتها الرومانية.

-إلى اللقاء أيها الإفريقي الشمالي.

-22-

وانصرفت أنا إلى جناح آخر منشغلا بعملي مقتنعا بما فعلت راضيا عن نفسي ككل مرة، منذ أن ولدت. ربما بعد أيام سيزول ذلك التيه الذي أنهكني منذ مدة.

وفي غمرة العمل وبهجتي براحة شعرت بها عقب انفصالي عن إيميليانا بأيام حادثت عائلتي وبعض أصدقائي هناك في الجزائر، كلهم بخير وهذا شيء جميل خاصة أمي لكن القدر جاءني بخبر كنت غافلا عنه.

صديقي محمد وفي غمرة حديثنا وبعد توطئة قصد الهدف مباشرة: «يؤسفني أن أخبرك بأن العدالة تبحث عنك"

-العدالة؟ ولماذا؟

-استفسرت عن أحد أصدقائي المحامين فأخبرني أن الأمر يعود لقضية جمعية البطالين التي كنت تقودها والمظاهرات التي قمتم بها، وقد أعيد فتح الملف. لذلك لا تفكر في المجيء الآن إلى البلد، قد تجد نفسك في السجن.

-أوووووه. لكن القضية مر عليها ثلاث سنوات.

-لا أدري يا صديقي. هكذا أخبرني المحامي.

وعائلتك رفضت أن تخبرك قلقا عليك. نرجو أن نجد طريقة نلغي بها المتابعة الجزائية في حقك وكل دعواتنا لله أن يفرجها.

بت الليلة أفكر في الأمر، أنا لم أرتكب جريمة حتى أتابع في القضاء الجنائي، بالتأكيد كيفوا قضيتنا تلك على أساس أنها

تأمر وتمرد على النظام أو حتى على أساس أنها أياد خارجية تسعى للفتك بأمن الدولة ونحن في الحقيقة لم نكن سوى بطالين تظاهرنا مطالبين بالشغل وقد أنهكتننا الفاقة والفقر، نحن فقط عبرنا عن حاجتنا لمنصب عمل بسيط نقتات به وتقتات به عائلاتنا.

ماذا فعلنا بحق الله حتى تلاحقنا المآسي هنا في بلاد الماكينات، لقد هربنا نحو الشمال تاركين خلفنا كل شيء، تركنا جمال الغروب في الصحراء، تركنا جبال قريتنا هناك في الشرق، تركنا كتاب قريتنا وترابا داعبته أناملنا في الصغر، تركنا أسرنا وأمهاتنا وخبز أمهاتنا. وهل سيحرموننا زيارة الوطن حتى؟ فهل يريدوننا أن نعود إليه فندخل السجن؟

ماذا فعلنا بحق الله حتى تلاحقنا المآسي إلى هنا وقد تركنا لهم الوطن كله.

برج بوعريريج: 15جويلية 2019